نصيحة إلى القارئ:

حاول بقدر طاقتك أن تكون قراءتك الأولى لهذا الكتاب قراءة متصلة في مجلس واحد.

والوقت المقدر لذلك من ساعتين إلى ثلاثة.



في ستة أيام



علي محمود العمري

في ستة أيام





(١)
بداية الإيمان

يا ربِّ...

لطالما كانَ هذا النداءُ يُلامسُ شَغافَ قلبي...

لطالما كنتُ أستشعرُ حالَ التَّلفظِ به أنَّ حبلاً تَدَلّى من السّماءِ إليَّ، وكأنّي أسمعُ الملائكةَ تُنادي بصوتٍ مَهيبٍ: اِستمسكْ بحبلِ مَنْ ناديتَ تنجُ...

يا ربِّ...

كنتُ ما ذَكَرتُها إلا وأمتلكُ كِياني أنّي أُخاطبُ المربّيَ الحقيقيَّ، الذي يَتَعهّدُني بالتّربية آناً تِلوَ آنٍ

آناً بالعطاءِ وآناً بالمنعِ...

آناً بالوَجْد وآناً بالفَقْد...

آناً بالبَسْطِ وآناً بالقَبْضِ...

ليُسِرَّ لي في آنٍ أنْ يا عبدي كلُّ ما سِوايَ مخلوقٌ، وكلُّ مَخلوقٍ زائلٌ، ولا يبقى لكَ غيري في كُلِّ آنٍ، فاستمسكْ بحبلي...

يا ربِّ...

كانت أُنْسِـي في وَحْشَـتي، وجَبـري في كَسْـري، ونَصْري فـي مَظْلَمَتي، ومُرشِـدي في تِيْهـي، ورِضايَ في سَـخَطي...

لا أذكرُ تـماماً متى أصبحَ ندائي «يا رَبِّ» مُجرَّداً من أغلبِ هذه المعاني، بل أصبحَ نداءاً غيرَ مألوفٍ لا يُذكَرُ إلا قليلاً... لا أعلمُ على وجهِ الدِّقةِ متى تحوَّلتْ «يا رَبِّ» من نداءٍ إلى المربّي إلى كلمةٍ لا أَذكُرها إلا إنْ وَقعْتُ في مُصيبةٍ أو أمرٍ عَسيرٍ.

ما أَعلمُهُ تحديداً الآنَ أنَّ ذلكَ «الشَّغَفَ» في الارتباطِ بِـ«الخالقِ الرَّبِّ القادرِ» بدأ يتناقصُ مع دُخولي الجامعةَ...

ذلك المكانُ الذي سَمِعتُ فيه للمرّة الأُولى «زميلاً» يستهزئُ بِـحِرصي على الصّلاةِ في وقتِها.

ذلكَ المكانُ الذي كنتُ أجلسُ فيه السَّاعاتِ الطِّوالَ أتعلّمُ فيه شتّى العلومِ والفنونِ دونَ أنْ أتعلَّمَ شيئاً مُتعلّقاً بالدِّين...

تعلَّمـتُ تفاصيـلَ «حـوارِ» سُـقْرَاطَ مـع مُرِيدِيـهِ، وتفاصيـلَ رؤيـةِ كانطَ «للعقلَيـنِ النّظـريِّ والعملـيِّ»، وتفاصيـلَ المنفعـةِ التـي يراها وِلْيـام جِيمس مـن «إرادةِ الإعتقـادِ»...

تَعلّمـتُ كلَّ ذلـكَ ولكـنْ لم أتعلَّمْ شـيئاً من تفاصيـلِ الفقهِ أو السِّـيَرَةِ أو التّفْسيرِ...!

تعلّمتُ في الجامعةِ أنَّ هناك تفسيراً علميّاً تفصيليّاً لِمَا كنتُ أتلَقّنُهُ قديماً في البيتِ والمدرسةِ بأنّه «خُلِقَ العالَم من العَدَم»...!

فـي الجامعةِ، حيثُ سمعتُ للمرّة الأُولى مَن يُصَرِّحُ بأَنَّهُ «لا إلهَ»، ومَن يُخبِرُني بأَنَّهُ لا يعلَمُ إنْ كانَ ثَمَّةَ «إلهٌ»، ومَن لا يُبالي أصلاً إنْ كانَ هناك إلهٌ أم لا...!

أعـدتُ النَّظَـرَ إلـى حالـيَ الأوَّلِ، هـل كانَ أصـلاً شُـعوراً راسـخاً فـي نفسـي، أم أنَّ المجتمـعَ الذي نشـأتُ فيه كانَ بحَسَـبِ طبيعتِهِ سـيَفرِضُ عليَّ مثـلَ هذه الأفـكارِ؟

أليستْ رؤيتي لوالدَينِ يُصَلِّيان على الدّوامِ ستجعَلُ منّي مُصلَّياً بشكلٍ لا إراديٍّ؟!

أليسَ مجرَّدُ إجباري على دراسةِ مادةِ «التّربيةِ الإسلاميّةِ» طولَ سِنِيِّ الدّراسةِ هو الذي جَعَلَ منـّي مؤمناً باللهِ، لاجئاً إليه بالدّعاءِ والمُناجاةِ؟!

أليسَ صيامُ كلِّ مَن كانَ حولي في سنواتي الأولى هو مَنْ أنشأَ في قلبـي الرَّهْبَةَ من الإفطارِ في رمضانَ، وليسَ أمرُ اللهِ بالصّيامِ؟!

ماذا لو وُلِدت لأبوَينِ لا يَعرِفان الصّلاةَ؟

ماذا لو دَرَسـتُ فـي مدراسَ علمانيّةٍ ليـس فيها مادةُ «التّربيةِ الإسـلاميّةِ» ضِمْنَ مُقرَّراتِـها؟

هَبْ أنّي نشأتُ في بلدٍ غربيٍّ لا يَعرِفُ أهلَه صيامَ رمضانَ؟

نعمْ

أظنُّني أدركتُ سببَ ما كنتُ فيه وما وصلتُ إليه...

الإيمانُ مسألةٌ تتعلَّقُ بالنَّشْأةِ الاجتماعيّةِ التي تُلقَى عليكَ دونَ أنْ تدريَ أحكاماً تظنُّها نابعةً من نفسِكَ وفِكرِكَ، والحقيقةُ أنَّكَ محضُ مُنفَعِلٍ بما فَرَضَهُ عليكَ المجتمعُ، نعم أنتَ «مَحْضُ مُقَلِّدٍ»...!

لكنْ مهلاً...

هل هذا الاستنتاجُ الذي وَصَلتَ إليه معناه أن تتوقَّفَ عن التفكيرِ «باللهِ»، والاعتقادِ بوجودِهِ وقُدرَتِهِ على كلِّ شيْءٍ؟

ألا يُفتَرَضُ بكَ الآنَ ـ وقد أصبحتَ قادراً على تحليلِ بدايةِ علاقتِكَ بالدِّين كيفَ كانتْ ـ أن تَقدِرَ على تحديدِ «خارطةِ طريقٍ» لعلاقتِكَ بِهِ الآنَ كيفَ ستكونُ؟

بلى، الآنَ تحديداً تَـوجَّبَ عليك تركُ التّقليدِ ـ الذي كنتَ تَركَنُ إليه ـ إلى «تحقيقٍ» تَصْبُو إليه.

ما هي الخِياراتُ المُتاحةُ أمامي لتحديدِ علاقتي باللهِ؟

حسناً... أظُنُّها لن تَخرُجَ عن أحدِ احتمالاتٍ أربعةٍ:

١ ـ الإيمانُ باللهِ.

٢ ـ الإيمانُ بِعَدَمِ وجودِ اللهِ.

٣ ـ الشّكُّ وعدمُ القدرةِ على ترجيحِ وجودِ اللهِ من عَدَمِهِ.

٤ ـ صَرْفُ نَظَرِي عنِ المسألةِ من أساسِها على اعتبارِ أنَّها قضيةٌ محضُ غيبيّةٍ مِيْتافِيزِيقِيّةٌ لا يَنْبني عليها شيْءٌ عَمَليٌّ.



(٢)
احتمالاتُ الإيـمانِ

الاحتمالُ الذي أرى استبعادَهُ بَديهيّاً هو صرفُ النَّظَرِ عن المسألةِ بحُجّةِ أنْ لا طائلَ عمليّاً منها، كيفَ ذلك وأنا أُدرِكُ يقيناً أنَّ الإيـمانَ باللهِ له آثارٌ نفسيّةٌ تظهرُ بوضوحٍ في سلوكِ الفردِ المُتدَيِّنِ، وكذا آثارٌ اجتماعيّةٌ ظاهرةٌ، كما حَصلَ معي في علاقتي بالصّلاةِ والصّيامِ نتيجةَ تأثُّري بـمَنْ حَولي، بَل لهُ آثارٌ سياسيّةٌ أيضاً، حيثُ إنّي قرأتُ في الـجامعة عن حروبٍ دينيّةٍ كانتْ وما تَزالُ إلى يومِنا هذا!

وجميعُ هذه الآثارِ النّفسيّةِ والاجتماعيّةِ والسّياسيّةِ المُترتّبةِ على الإيـمانِ باللهِ سيكونُ مُقابلُها هو الحاصلَ قطعاً في حالِ عدمِ الإيـمانِ.

ثـمَّ... هل الإنسانُ العاقلُ لن يُفكِّرَ ويَبحثَ إلا فيما كانَ عمليّاً؟!

أليسَ شِعرُ الشُّعَراءِ وفَنُّ الفنّانِين كانَ ناتـجاً عن حالةٍ من الصّفاءِ النّفسيِّ؛ حيثُ يُطلِقُ الواحدُ منهم العَنانَ لفكرِهِ مُنقَطِعاً عمّا يَصرِفُهُ مِن صوارفَ ومن أهمِّها مشاغُله العمليّةُ؟!

أليسَ أغلبُ ما تعلّمتُهُ من الرّياضيّات مثلاً كانتْ مسائلَ نظريّةً لم أكُنْ ـ وما زِلتُ ـ لا أعلمُ كثيراً من تطبيقاتِـها العمليّةِ؟!

فهل علينا بناءاً على ذلك أن نستخفَّ بإنتاجِ الشُّعراءِ والفنّانِينَ وعلماءِ الرياضيّاتِ؟!

ألَا يَـحِـقُّ لي كإنسانٍ «عاقِلٍ» أن أُفكّرَ فيما أشاءُ وقتَما أشاءُ دونَ أنْ أكونَ حَبِيساً لاشتراطِ النّتائجِ العمليّةِ لكلِّ ما سأُفَكِّرُ به؟!

لقد قرّرتُ أن أستبعدَ هذا الإحتمالَ تـماماً.

أما الاحتمالُ الآخرُ وهو القَبول بالشَّكِّ والتوقفِ فأراهُ انـهزاماً في مسألةٍ جوهريّةٍ كهذه إن قَبِلْتُه في أوَّلِ الأمرِ؛ فمعنى الشّكِّ هو تساوي قَبولِ الفِكرةِ وعَدَمِه في نفسي، وبالتالي فأنا أُقِرُّ أنّي عاجزٌ عن أيّ ترجيحٍ...

حقيقـةً أنـا أرى القَبولَ بالشّـكِّ قبلَ بَذْلِ الوُسْعِ والطاقةِ في البَحث كَسَـلاً فكريّـاً، ولذلـكَ سـيكونُ هـذا الاحتمـالُ مُؤجَّـلاً إلـى حيـن اسـتفراغِ الوُسْـعِ بالاحتمالَيـنِ الباقيَينِ.

أظنُّني قادراً أنْ أصلَ إلى نتيجةٍ إيـجابيّةٍ أو سلبيّةٍ لـهذه القضيّةِ، فالقضيّةُ عقليّةٌ علميّةٌ...

إمّا أنْ يكونَ لهذا العالَمِ خالقٌ أو لا، فإنْ كانَ؛ فَعَليَّ البحثُ هل الخالقُ هو اللهُ أم أنَّ الأمرَ أعقدُ من هذا؟

وإنْ لم يكُنْ.. فَعَليَّ البحثُ عن تفسيرٍ عِلميٍّ مَقبولٍ لوجودِ هذا العالَم دون تدّخلٍ مِيتافِيزِيقيٍّ...

لكنْ توقَّفْ لحظةً...

هل يستحقُّ الأمرُ حقّاً كلَّ هذا العَناءِ؟

أليسَ ما أنا مُقبِلٌ عليه من رِحلةِ البحثِ هذهِ هو مِن أعوصِ المسائلِ التي حارَ فيها العقلاءُ، وتفرَّقوا واختلفوا مِلَلاً ونِحَلاً بناءاً على ما توصّلوا إليه في نهايةِ بحثِهِم؟

لماذا أقتحمُ بحراً من الأمواجِ المُتلاطمةِ وأنا أملكُ خيارَ الجلوسِ على الشاطىء بهدوءٍ؟!

والأهمُّ من هذا، ماذا لو أخطأتُ في بحثي فَوَصلتُ إلى نتيجةٍ خاطئةٍ سأبني عليها قراراً سيبقى معي طِوالَ عُمُري؟!

أليس هذا الاحتمالُ لوحدِهِ كافياً ليجعلني أتّخذُ قرارَ المكوثِ على الشاطئِ؟!

إذنْ أظنُّ أنَّ البحثَ الآنَ في مدى استحقاقِ الولوجِ في هذه الرِّحلة وكلِّ هذا العناءِ أولى في هذه المرحلةِ من البحثِ مباشرةً في وجود الخالِقِ من عَدَمِه؛ ذلكَ أنَّهُ إنْ تبيَّنَ لي أنَّ عدمَ بحثي سيكونُ ضررُه أكثرَ من نَفعِهِ فهذا سيدفعني إلى مزيد همّةٍ في البحثِ، وإن تبيَّن لي عكسُ ذلكَ فلا حاجةَ لاقتحامِ البحرِ الهائجِ.



(٣)
دافعُ البحثِ في الإيـمانِ

لماذا عَلَيَّ أنْ أبحثَ؟

سؤالٌ بَقِيَ معي أياماً، وكانَ كلّما راودَني حاولتُ صرفَهُ عني بالاشتغال بغيرِهِ...

لكنّي الآنَ عازمٌ على النَّظَرِ فيه، لماذا عَليَّ أن أبحثَ؟

حسناً؛ أولُ ما يخطرُ ببالي للإجابةِ عن هذا السّؤالِ هو أنّي عليَّ أنْ أبـحثَ لأنَّ الموضوعَ مهمٌّ حقّاً؛ حيثُ إنَّ بـحثي هذا سيوصلُني إلى ما سيؤثّرُ في جميعِ حياتي ونظرتي إلى نفسِي ومَنْ حولي، بل حتَّـى في تصوّري للحجرِ والشّجرِ، والسّماءِ والأرضِ، وفوقَ هذا تصوّري للدُّنيا بِأَسْرِها...

هَبْ أنَّ الإلهَ الحَقَّ موجودٌ، سيترتّبُ على ذلكَ وجوبُ طاعتِه في أمرِه ونـهيه الذي وردَ في كتابِهِ وسنّةِ نبيِّه، وأمرُه ونـهيُه قطعاً ليس فقط أحكاماً فرديّةً شخصيّةً، بل هي أحكامٌ ستتعلّقُ بي وبوالدَيَّ وأقاربي وجِيراني وأهلِ بلدي، ومَنْ وَافقني في الدّين ومَنْ خالفني فيه...

وأيضاً إيماني بالله سيفرِضُ عليَّ «نظاماً أخلاقيّاً» معيَّناً سأُحاكِمُ به نفسي وغيري.

هذا الإيـمانُ سيَفرِضُ عليَّ تصوّراً مُعيّناً للدُّنيا والآخرةِ، فالدُّنيا ستكونُ بكلِّ ما فيها مـخلوقةً لـهذا الـخالقِ، وعلى هذا؛ كلُّ ما فيها سيكونُ مُفتقراً له، وعليه أن يُعامِلَهُ بـمقتضى هذا الافتقارِ، فيلجأَ إليه عند كلِّ حاجةٍ، ويشكُـرَهُ عندَ كلِّ عطاءٍ.

ستكونُ هذه الدّنيا دارَ امتحانٍ وبعدَها آخرةٌ دارُ جزاءٍ...

فـي المقابـلِ لـو كانَ الإلـهُ غيـرَ موجـودٍ فلـنْ أُضيِّـعَ وقتـي فـي صـلاةٍ وصيـامٍ، ومالـي فـي زكاةٍ وصدقةٍ؛ حيـثُ إنَّ هذه الأعمالَ سـتغدو بلا معنًى، وأيضـاً سـيكونُ «النّظـامُ الأخلاقـيُّ» الـذي سـألتزمُ به اجتهاداً بشـريّاً ربّــما سـيتغيّرُ بــحَسَب الزّمانِ والمكانِ، وسـتكونُ الدُّنيا هي المَقـرَّ، ولا حياةَ بعدَ الموتِ.

(أظنّني إن كنتُ عاقلاً فما تقدَّمَ من أمورٍ هائلةٍ لتَبْعثُ فيَّ الـهمّةِ لِبَدءِ البحثِ) ٣: ١

لو كانِ اللهُ موجوداً؟



(٤)
مفتاح البحث

كيفَ سأبـحثُ؟

كُلّما ظننتُ أنّي قطعتُ الشّوطَ الأصعبَ أتفاجأُ بسؤالٍ جديدٍ يُعيدني إلى دائرةِ الحَيْرةِ مـجدداً، بل يَفتَحُ لي أبواباً مِنَ الحَيرة فوقَ ما كانَ...

ها أنا بعدَما تَيَقَّنتُ من ضرورةِ البحثِ عن اللهِ، وَعَزمتُ أمري على ذلك أتوقّفُ حائراً كيفَ سأبدأُ البحثَ؟

ما يزيدُ فـي حَيرتي حقّاً هو أنّه هل أنا بالأساسِ مُؤهَّلٌ لأستقِلَّ في هذه الرِّحلةِ البحثيِّة بنفسي، أم أنّي مُقبِلٌ على بـحثٍ علميٍّ لا أملكُ أدواتِهِ؟

في الحقيقةِ كلا الخيارَينِ أراهُ إشكاليّاً: فلو اكتفيت بنفسي في هذا البحثِ فما أراني إلا مَغروراً مُتكبّراً، فهو بـحثٌ بَذَلَ فيه العلماءُ والفلاسفةُ أعمارَهم، واستنفذوا وُسْعَهم في تصنيفِ الكُتُبِ التي لَـخَّصتْ علومَهم، ثم لم يَكتَفُوا بذلكَ، بل ناظَرَ بعضُهم بعضاً ليختبروا ما وصلوا إليه من نتائجَ...!

هل يصحُّ لي بعدَ كلِّ هذا أنْ أقولَ: شكراً لكم مِنْ سلفٍ، لكنّي ذكيٌّ بـما يكفي لأنْ أبـحثَ في هذه المسألةِ العلميّةِ العَويصةِ المليئةِ بالمصطلحاتِ التي لم أسمعْ بـها في حياتي؟!

ثُمَّ إنّي بعدَ هذا البحثِ لستُ بـحاجةٍ أنْ أَعرِضَهُ على أحدٍ من العلماءِ؟!

فكما قلتُ سابقاً: هل أنا ذكيٌّ بـما يكفي لأثقَ أنّي على صوابٍ فيما توصّلتُ إليه في هذا البحثِ؟! أرى أنّني إذا كنتُ سأبدأُ بـهذه الطّريقةِ فهي «انتحارٌ فكريٌّ» و«حريّةٌ زائفةٌ» في البحثِ، لأنّها ـ ببساطةٍ ـ ليست موضوعيّةً، فقد أعطيتُ نفسي عِصمةً عن الخطأِ سابقة في بحثٍ لمّا أشرعْ به.

لكن في المقابلِ لو استعنتُ بأهلِ الاختصاصِ ليوجّهَني ويقودَني في بـحثي ألن أرجعَ مرةً أخرى إلى ما أنا بصددِ الهروبِ منه وهو «التقليدُ»؟!

كيفَ سأطمَئِنُّ أنَّ ما سيقولُهُ صحيحٌ وأنا لا أعرفُ ـ ورُبَّما لن أفهمَ ـ كثيراً من تفاصيلِ كلامِهِ؟!

ما أراني كلَّ مرّةٍ تقدّمْتُ فيها خُطوةً إلا رجعتُ خَطواتٍ!

لكن ما باليدِ حِيلةٌ، أنا مُضْطرٌ لأجدَ حلّاً لـهذه الإشكاليّةِ؛ لأنَّ البحثَ في هذا الموضوعِ لا يُـمكنني تجاهلُه، بل لو تركتُهُ الآنَ بعدَما تفكّرتُ في أهميّتِهِ فسأزدادُ حَيْرةً.

أظنُّ أنَّ الحلَّ هو التّوسّطُ بين الطريقَينِ، بأنْ أستعينَ بأهل العلم في بـحثي، وأيضاً أتوقّفُ في كلامهم ولا أقبلُهُ إلا بعدَ تـمحيصِهِ والتفكّرِ فيه بحـَسَب ما أستطيعُ، وإنْ لم أقتنعْ ببعضِ كلامِهم سأصارحُهم بذلك دونَ خجلٍ وأطلبُ منهم زيادةَ توضيحٍ، وأتأكدُ أنّي فهمتُ كلامَهم على وجهِهِ،

وإنْ لم يكنْ ثمَّةَ جوابٌ على سؤالي في جُزئيّةٍ مُعيّنةٍ فسأتفكّرُ في سبب عدمِ تصويرِ الدّينِ هذه الجزئيّةَ...

إذنْ اخترتُ طريقاً هو في الحقيقةِ من أصعبِ الطّرقِ؛ حيثُ إنّي الآنَ سأتفكّرُ في كلامِ أهلِ العلمِ عن الدّين تفكيراً ناقداً، وليس فقط في فَهمي الشّخصيِّ للدّينِ.



(٥)
فاسأل به خبيراً

إن كنتُ قد اخترتُ سؤالَ أهلِ العلمِ فَعَليَّ إذنْ أنْ أسألَ عالماً مختصّاً فيما أنا بصددِ بحثِه، فلن أسألَ عالماً في أحكامِ الطّهارةِ والصّلاةِ، ولا عالماً في اللّغة العربيّةِ، ولا عالماً في الحديثِ...

سأسألُ مختصّاً في العقيدةِ تحديداً، فمن أهمِّ ما تعلَّمتُهُ في دراستي الجامعيّةِ احترامُ التّخصّصِ؛ لأنَّ كلامَ غيرِ المتخصّصِ سيكونُ غالباً عامّاً وإجماليّاً، وأنا في هذه المرحلةِ أَحْوَجُ ما أكونُ إلى الإجاباتِ الخاصّةِ والتّفصيليّةِ.

أتذكرُ الآنَ أنَّ زميلاً لي مرّ بظَرفٍ قريبٍ ممّا أنا فيه وأخبرني أنَّهُ ذهبَ إلى أحدِ العلماءِ ووجدَ عندَه أغلبَ الإجاباتِ التي بحثَ عنها...

حسناً فليَكُنْ إذنْ هو مُرشِدي في رِحلتي ولكن بشروطي التي لن أخجلَ من اشتراطِها عليهِ.

طلبتُ مِنه مَوعداً واتفقنا أنْ آتيَهُ إلى مكتبةِ الجامعِ التي يجلسُ فيها عادةً بينَ العصر والمَغربِ، وفعلاً عندما وصلْتُ إليه كان بانتظاري مبتسِماً.

شعرتُ بتردّدٍ ورَهبةٍ كبيرَينِ، لا أدري لماذا ذهبَ كلُّ الحماسِ والإصرارِ الذي عَزَمتُ عليه عندما كنتُ أُحدِّثُ نفسي... أتـمنّى في هذه اللحظةِ تـماماً أن يُؤذَّنَ لصلاةِ المغرب لينتهيَ هذا المـجلسُ الذي لمّا يبدأْ بعدُ، أو أن يَرِنَّ هاتِفُه فَيَنشغلَ بـمُكالمةٍ طويلةٍ جداً تستغرقُ جميعَ الوقتِ، أو... أو....

إلا أنّه قاطعَني في خيالاتي مع نفسي وَطَلب منِّيَ الـجلوسَ.

شعرتُ بالـخَطواتِ القليلةِ من بابِ المكتبةِ إلى الكرسيِّ إنّها سَفَرٌ طويلٌ مُقلِقٌ وأنا في منتصفِهِ، فلا أنا قادرٌ على العودةِ، وكذلك لا أقوى على المَسيرِ إلى النّهايةِ.

لاحَظَ اضطرابي بل شعرتُ أنَّه كان مَتوقِعاً له، فانتظَرَني حتى جلستُ وسألَني:

ـ يبدو عليك عدمُ الارتياحِ، صحيحٌ؟

ـ بصراحةٍ نعم.

ـ وَلِـمَ؟

ـ بعد تردّدٍ كبيرٍ أجبتُه: في الحقيقةِ كنتُ مُرتِّـباً في نفسي كلاماً كثيراً، وأفكاراً مهمّةً لأطرحَها عليكَ، ولكن لا أدري لِـمَ شعرتُ بالـخوفِ من التّحدّث بـها عندما وصلتُ إليكَ؟!

ـ تبسَّمَ وقالَ لي بـهدوءٍ:

عندما كنتُ مُراهقاً كنتُ أستمعُ إلى قارئٍ مشهورٍ كثيراً، كنتُ لا أنامُ إلّا إذا استمعتُ إلى قراءتِهِ في الشّريطِ المُسجَّلِ الذي معي. وكنتُ أُرَدِّدُ في نفسي دائماً ما أحفظُ من القرآنِ مُقلِّداً إياه، ومعَ الوقتِ بدأتُ أنسى أنّي أحاولُ تقليدَه، وأشعرُ أنّي أنا من اخترعتُ هذه الطريقةَ في القراءةِ، ودائماً أقرأُ القرآنَ في نفسي وأنا مُستمتعٌ بـجمالِ صوتي وإتقانِ قراءتي، وكنتُ كُلّما صلّيتُ جماعةً في المسجدِ لا تُعجبني قراءةُ الإمامِ، من حيثُ جمالُ الصوتِ والتجويدُ، وأتصوّرُ نفسي إماماً والناسُ خلفي تبكي خُشُوعاً.

وفي أحدِ الأيّامِ جاءَ شيخٌ وأقامَ حَلَقةً للتجويدِ في المسجدِ، وبدأ الناسُ يتَحَلّقُون حولَه لتعلُّمِ التجويدِ، أمّا أنا فكنتُ أراني أكبرَ من هذا. فأنا صاحبُ الصّوتِ الـجميلِ والقراءةِ المُتْقنَةِ...

إلّا أنّـي في أحدِ الأيّامِ قرّرتُ أنْ أُعرِّفهم بتميّزي في القراءةِ، فجلستُ بينَهم، وانتظرتُ حتى حانَ دوري، ثم بدأتُ أقرأُ كما كنتُ أقرأُ في سرّي دائماً. وكمْ تفاجأتُ بل صُدِمتُ عندما أخبرني الشيخُ أنَّ قراءتي مليئةٌ بالأخطاءِ التي أحتاجُ وقتاً لتداركِها، ولم يُعلِّقْ أحدٌ على جمالِ صوتي، بل على العكسِ، بعضُهم كان يبتسمُ ساخراً من «قراءتي المزعجةِ»!

هنا تعلّمتُ درساً مهمّاً: حُكمُك على نفسِكَ قلّما يكونُ موضوعيّاً...

فأنا حكمتُ بجمالِ قراءتي فقط لأنّي أحسستُها كذلكَ، مع أنَّني لو طلبتُ الاستعانةَ بغيري في الحكمِ لاتَّضحَ ليَ الأمرُ على حقيقتِهِ.

وهذا الذي قُلْتُه لكَ الآنَ يكادُ يكونُ عامّاً عندَ أغلبِ البشرِ، فعندما تجلسُ مُختَلِياً بنفسِكَ لتفكّرَ في مُشكلةٍ مُعضِلَةٍ، وتبدأَ التحليلَ ستظنُّ أنَّكَ تحلّلُ الأمرَ بصورةٍ عميقةٍ دقيقةٍ، وتبدأ بتصويبِ وتَخْطِئةِ غيرِك وأنتَ مُطمئِنٌ لذلكَ، بل تتكّلمُ في نفسِك وكأنّكَ سِقراطٌ يُلقِي محاضرةً على أفلاطونَ وسائرِ تلاميذِهِ، في حينِ أنّكَ لو عرضْتَ هذه الأفكارَ على المُخالفِ لكَ سينبُّهكَ إلى مواضعِ الإشكالِ فيها وينقدُها نقداً ستتوقفُ معَهُ مليّاً، فتزولُ عن نفسِك تلكَ الثّقةُ التي كانتْ حينَما كانتِ الأفكارُ حَبيسةَ نفسِك، بل حتَّى ما تجدُهُ في نفسِكَ من خواطرَ ربّما تظنُّها نَفَحاتٍ إلهيّةً قد تكونُ وسوسةً شيطانيّةً لو دقّقتَ فيها.

فالحاصلُ يا بُنيّ أنّه من الطبيعيِّ أن تكونَ ثِقتُكَ بأفكارِكَ راسخةً ما دُمتَ أنتَ الحاكمَ عليها، وتقِلُّ هذهِ الثّقةُ إنْ طلبتَ من غيرِكَ الحُكمَ عليها، وكُلّما كانَ المُقيِّمُ غريباً عنكَ كانتِ الثّقةُ أقلَّ.

شَعَرتُ بالارتياحِ لكلامِهِ، أولاً لأنَّه خبيرٌ بأحوالِ النّفس، ثانياً لأنّه أقنعني أنَّ تَردُّدي أمرٌ طبيعيٌّ ما دُمتُ هممتُ بإخراجِ الأفكارِ من سجنِ نفسِي إلى فضاءِ الحوارِ والنّقاشِ المفتوحِ، فقلت له:

ـ يا سيّدي أريدُ أنْ أسألَكَ عن الإيـمانِ باللهِ: ما الدّليلُ على أنّهُ موجودٌ؟

وما الدليلُ إنْ كانَ ثمَّةَ إلهٌ أنَّهُ «اللهُ» وليس شيئاً آخرَ؟

وكيـفَ أثـقُ أنَّ الـذي أؤمنُ به هـو «اللهُ» وليـس ما أظنُّـه «اللهَ» وهو ليس كذلكَ؟

ولكن قبلَ ذلك أريدُ منكَ ـ لو تلطّفْتَ بالقَبول ـ أمرينِ:

١ ـ أن تتحمّلَ أسئلتي وربّـما مُقاطعتي لكَ، لأنّني هممتُ أنْ أُقيِّمَ كلامَكَ وآملُ أنْ لا يُغضِبَكَ ذلكَ.

٢ ـ أن تتجنَبَ بقَدَرِ الإمكانِ استخدامَ مُصطلحاتٍ غريبةٍ لا يفهَمُها إلا مَن قرأَ الكتبَ المُتخصِّصةَ.

ـ حسناً يا بُـنيّ لكَ ذلكَ، ولكن في المقابلِ لي شرطٌ لأبدأَ معَك...

ـ تفضّلْ.

ـ أنْ لا تَدَعَني أَنتقلُ مِن فكرةٍ إلى أُخرى حتّى تكونَ واثقاً تـمامَ الثّقةِ أنَّكَ فهمتَها، فإنْ «ظننتَ» أنّك َفاهمٌ لـها فلا يكفي للانتقالِ لغيرِها، وإنّما يـجبُ «اليقينُ» بذلك، حتَّى لو ترتّبَ على ذلك طولُ عهدِ اللّقاءِ بينَنا.

ـ تـمامٌ، هذا يُسعِدُنـي أصلاً...



(٦)
الإيمان

ـ بدايـةً يَتوجّـبُ عليـكَ أنْ تفهـمَ معنى «الإيــمانِ» حتى تتصـوّرَ تصوّراً صحيحـاً مـا أنـتَ مُقبلٌ عليه من «الإيــمانِ بـاللهِ»...

لو قالَ لكَ أحدُ المُصلّينَ ـ الذين لا تعرفُهم ـ قبلَ قليلٍ عندَما رآكَ مُتّجهاً للمكتبةِ: الشيخُ الذي في الداخلِ عندَهُ هاتفَينِ اثنَينِ في جَيبِه. هل ستُصَدّقُهُ؟

ـ سأُصدِّقُهُ نعمْ؛ لأنَّ هذا أصبحَ أمراً مُعتاداً في هذا الزمانِ أنْ يحمِلَ الرجلُ هاتفَينِ معاً في جيبِهِ.

ـ لكنْ ألمْ تلاحظْ أنَّكَ لا تعرفُ الرّجلَ في الأصلِ؟!

ـ وماذا سيترتّبُ على عَدَمِ مَعرِفَتي به؟

ـ سيترتّبُ أنَّكَ لا تَعرِفُ حالَه؛ إذ رُبـَّما يكونُ مشهوراً بكثرَةِ الكذبِ.

ـ نعمْ صحيحٌ، ولكن حتـّى لو كانَ مشهوراً بالكذبِ، إلّا أنَّ احتمالَ صِدقِهِ ما زالَ وارداً، خاصةً في أمرٍ مُعتادٍ.

ـ جَيْدٌ، كلامُك سليمٌ، ولكنْ هل لاحظتَ أنَّ عدمَ معرفتِك بـحالِهِ جَعَلَ احتمالَ كَذِبه وارداً جداً؟

ـ نعمْ، فرُبـَّما يكونُ كاذباً كما ذكرتَ وأنا لا أعرفُ.

ـ فلو قلتُ أنا لكَ: عندِي هاتفَينِ اثنينِ في جيبي. هل ستصدقُني؟

ـ نعم سأصدِّقُكَ؛ لأنّي أعلمُ حالَك، فلستَ مجهولاً بالنّسبةِ لي مثلَ الرّجلِ السّابقِ.

ـ هل لاحظتَ أنَّ الفرقَ بينَ الحالتَينِ هو وجودُ «دليلٍ أقوى» في الحالةِ الثّانيةِ، ففي الحالة الأولى كانَ الدليلُ هو أنَّ الأمرَ معتادٌ، بينَما في الثّانية انضمَّ إلى العادةِ دليلٌ آخَرُ، وهو إحسانُكَ الظّنَّ بي، فزادتْ ثقتُكَ «بالتّصديقِ» في الأمرِ.

ـ نعمْ لاحظتُ هذا.

ـ ولكنْ ما زالَ احتمالُ عدمِ صدقِ قولي قائماً؛ فأنا لستُ معصوماً عن الكذب. ولكنّ هذا الاحتمالَ أقلُّ مِنِ احتمالِهِ عندَ رجلٍ مـجهولٍ لا تعرفُ حالَه.

ـ صحيحٌ.

ـ اِفرِضْ أنَّكَ تتحدّثُ معي ثـمَّ فجأةً بدأَ كِلا الـهاتفَينِ بالرّنينِ في نفسِ الوقتِ بِـنَغَمتينِ مـختلفتَينِ أو أخرجتُهُما من جيبي ووضعتُهُما أمامَك على الطاولةِ، فما قولُكَ في هذه الحالةِ؟

ـ الآنَ أنا متيقّنٌ تـماماً بصدقِ وجودِ الـهاتفَينِ، فالدليلُ الآنَ ظاهرٌ لا يـمكنُ التّشكيكُ فيه.

ـ أحسنتَ، هذا مِثالٌ لمراتبِ التّصديقِ المختلفةِ التي تـحصلُ في نفسِكَ حينَما تشرعُ في البحثِ عن جوابٍ لأمرٍ ما، فرُبـَّما قَبِلتَ جواباً ولكنْ بأدنـى درجاتِ «التّصديقِ»...

ورُبـَّما زادَ التّصديقُ في نفسِكَ إلى مرتبةٍ أعلى، ولكن ما زالَ احتمالُ الخطأِ يُراودُكَ...

وقد تصلُ إلى مرتبةٍ هي «التّصديقُ الـجازمُ» وهي التي تصلُ إليها عقيبَ معرفةِ دليلٍ قاطعٍ لن تشُكَّ في صدقِهِ.

«فالإيـمانُ» هو المرتبةُ الثّالثةُ، ولا يُسمَّى المرْءُ مؤمناً ما لم يَـحصلْ في قلبِهِ «التّصديقُ الـجازمُ» الذي لا يـُجوِّزُ معه الخطأَ.

ـ ولكن أليس بـهذه الصّورةِ سيستحيلُ إيـمانُ أكثرِ النّاسِ، لأنَّ الأمرَ صعبٌ أنْ تصلَ فيه إلى هذه الدرجةِ منَ اليقينِ والـجزمِ؟!

ـ لو أردْنا أنْ نُحلِّلَ سؤالَكَ السّابقَ لوجدْناه في الحقيقةِ سؤالَينِ وليس سؤالاً واحداً:

١ ـ هل الوصولُ إلى الإيـمانِ مُستحيلٌ لأغلبِ النّاسِ؟

٢ ـ هل الوصولُ إلى الإيـمانِ صعبٌ لأغلبِ النّاسِ؟

أما جوابُ السّؤالِ الأولِ «فلا»، وسأُبيِّنُ لكَ بعدَ قليلٍ طريقَ الوصولِ إلى الإيـمانِ.

أما جوابُ السّؤالِ الثّاني فجوابُه يـحتاجُ إلـى بعضِ التّفصيلِ:

عندما كنتَ صغيراً هل كنتَ تعرفُ أنَّ اللهَ موجودٌ؟

ـ نعمْ.

ـ وكيفَ عرفتَ ذلكَ؟

ـ تعلّمتُهُ من والدَيّ، حيثُ إنّهما كانا يذْكُرانِ الأمرَ على الدّوامِ.

ـ أظُنُّكَ ستوافقُني الآنَ إنْ قلتُ لكَ: إنّ احتمالَ خطأِ والدَيكَ واردٌ بالنّسبةِ لكَ الآنَ، أمّا عندَما كنتَ طِفلاً فلمْ يكنْ وارداً، صحيحٌ؟

ـ نعم عندَما كنتُ واثقاً كنتُ آخذُ المعلوماتِ منهما بلا تـمحيصٍ، لأنّـي لا أشُكُّ في كلامِهما، أمّا الآنَ فأنا أُدَقِّقُ وأبـحثُ ولا أقبلُ صِحَّةَ القولِ لمجرّدِ أنّهُ صدرَ من أبـي أو أمّي.

ـ وعندَما كبُـرتَ قليلاً وبدأتَ تتعاملُ مع «المجتمعِ» فوجدتَه موافقاً لاعتقادِ والدَيكَ الذي لُقِّنتَهُ وأنتَ صغيرٌ، فهل زادَ التّصديقُ في نفسِكَ؟

ـ أظنّني فهمتُ ما تريدُ الوصولَ إليه يا سيّدي، نعم زادَ التّصديقُ عندما رأيتُ وأنا صغيرٌ موافقةَ أغلبِ مَن حولـي لِما تلقّنتُهُ من والدَيّ، ولكنّي الآنَ أدركُ أنَّ هذه الموافقةَ الإجتماعيّةَ ليستْ كافيةً للجزمِ، بدليلِ أنـّي لو نشأتُ في مـُجتَمعٍ آخَرَ ربّـما لن تحصُلَ هذه الموافقةُ، صحيحٌ؟

ـ أحسنتَ، هذا تـماماً ما أردتُه، فأنتَ الآنَ تطلبُ دليلاً للإيـمانِ فوقَ «التّلقينِ»، وهذا الدليلُ سيكونُ طريقُكَ للإيـمانِ، ولكنْ لاحظْ أنَّ التَّفّكُرَ والبحثَ هو الذي جعلَكَ تطلبُ دليلاً يفيدُ الجزمَ، في حينِ أنَّك لو قَبِلت مـجردَ التقليدِ، ولـم تفكرْ وتبحثْ لكانَ التقليدُ كافياً لك في إيـمانِكَ، فهذا هو جوابُ سؤالِكِ: «هل الإيـمانُ صعبٌ على أغلبِ النّاسِ؟

فمن اكتفى «بالتّقليدِ» فوصولُه للإيـمانِ سيتمُّ بلا جُهْدٍ أصلاً، أما مَنْ لم يَقبلْ بالتقليدِ فعليه طبعاً بذلُ جُهْدٍ في سبيلِهِ.

ـ هل أفهمُ من كلامِكَ أنَّ مَنْ لا يَكتفي بالتقليدِ ويطلبُ الإيمان بالبحث مـُخطِئٌ، حيثُ أنَّ التّقليدَ يَكفيه في الإيـمانِ؟

ـ لو قلتُ لكَ أنَّ رَجلاً أعطاكَ حقيبةً، وقال لكَ: في هذه الحقيبةِ كنزٌ لا يُقدَّرُ بثمنٍ، وعندما تقعُ في الحاجةِ يـُمكنكَ الاستفادةُ منه كيفَما تشاءُ، فأخذتَ هذه الحقيبةَ وصَدَّقتَهُ دونَ أن تفتَحَ الحقيبةَ لترى هل فيها كنزٌ حقّاً، أو حِجارةٌ، أو حتّـى هل هي فارغةٌ، وانتظرتَ حتّـى وقتِ الحاجةِ لفتحِها، هل تراكَ مُصِيباً؟

ـ طبعاً لا؛ لأنَّ كلَّ الاحتمالاتِ التي ذكرتَـها عن الحقيبةِ مـمكنةٌ، ثم تصديقي له بدونِ دليلٍ جعلني أُقصِّرُ في الاستعدادِ ليومِ الحاجةِ ظنّاً منّي أنَّ معي الكنزَ الكافيَ، فرُبـَّما لو لم أكتفي بقولِه، ففتحتُ الحقيبةَ لوجدتُـها فارغةً، فبذلتُ جُهْدي لكسبِ ما سينفعُني حقّاً.

ـ فهذا هو يا بنيّ حالُ المُقلّدِ تـماماً...

يظنُّ أنَّه يحملُ كنزَ الإيـمانِ الذي سينفعُه يومَ القيامةِ دونَ أن يفتحَ الحقيبةَ ليرى هل قلَّدَ الحقَّ أمِ الباطلَ...

فالتقليدُ يا بنيّ شأنُ العُميانِ، والإيـمانُ الحاصلُ للمقلِّدِ هو إيـمانُ الأطفالِ وصاحِبُهُ على خطرٍ عظيمٍ.

ثم التّقليدُ لنْ يكونَ كافياً له إذا سَمِعَ الشُّبهةَ أو خطرتْ على قلبِهِ، فَلَيس معه الدليلُ لدفعِها، فيَنزِلُ عن درجاتِ التّصديقِ.

ـ الحمدُ للهِ، شوّقْتَني يا سيّدي، لنبدأْ بـحثَنا.



(٧)
مراتب إدراك الوجود

ـ لو قلتُ لكَ يا بنيّ: اللهُ موجودٌ، والعالمُ موجودٌ، وأنتَ موجودٌ.

هل برأيكَ إدراكُكَ لوجودِ كلٍّ مِنْ هذه الموجوداتِ حاصِلٌ في نفسِك على درجةٍ واحدةٍ من التّصديقِ؟

ـ سؤالٌ غريبٌ لم أفكّرْ به سابقاً، ولكنْ سأحاولُ...

أعتقدُ أنَّ التّصديقَ بوجودي هو الأوضحُ، لأنّي لا أحتاجُ دليلاً عليه أبداً، فأنا أتكلّمُ معَكَ الآنَ، وأشعرُ بنفسي، وأشعرُ ببرودةِ الـجوِّ الآنَ، وأتفكّرُ بكلامِكَ، لذا أصدّقُ بوجودِي تصديقاً جازماً.

ـ جيّدٌ، وأوّلُ ما يَهمُّنا عن هذا السُّؤالِ هو أنَّ الموجوداتِ ليستْ على درجةٍ واحدةٍ من الظُّهورِ، فبعضُها التّصديقُ بوجودِهِ لا يحتاجُ إلى دليلٍ، وبعضُها الآخرُ التّصديقُ بوجودِهِ مُتوقِّفٌ على الدّليلِ.

ـ ولكـنْ يا سـيّدي أيُّهما سـيكونُ أظهرَ بالنّسـبةِ لي، وجـودُ اللهِ أمْ وجودُ العالمِ؟

ـ لو قلتُ لكَ تـخيَّلْ أنّكَ الآنَ تركبُ «الحافلةَ» لتصلَ إلى «الـجامعةِ»، ففي هذه اللّحظةِ تحديداً هناكَ ظرفٌ أنتَ موجودٌ فيه وهو الحافلةُ...

وهناك سببٌ لوجودِكَ في هذا الظرفِ وهو الوصولُ إلى الـجامعةِ.

فبرأيكَ أيُّ الوجودَينِ أظهرُ بالنِّسبةِ لكَ؟ وجودُ الظّرفِ الزمانيِّ والمكانيِّ الذي أنتَ فيه أمْ وجودُ السّببِ الذي لأجلِهِ حصلَ وجودُكَ الظرفيِّ؟

ـ أكيـدٌ «وجـودُ الحافلـةِ» سـيكونُ أظهـرَ؛ لأنّي موجـودٌ فيهـا، وأدركُها بـحواسّي:

أجلسُ على كرسيٍّ فيها...

أرى من نافذتِـها...

أتفاعلُ مع الراكبِينَ من حولـي...

فهذه أمورٌ وجودُها يكادُ يكونُ في وضوحِهِ مساوياً لوجودي، أما «وجودُ السّببِ» الذي لأجلِه أنا الآنَ في الحافلةِ فيحتاجُ منّـي إلى تَـفَطُّنٍ وتذكُّرٍ.

ـ لذلك يا بنيّ ظهورُ الموجوداتِ إنّـما هو بـحسَبِ انفعالِكَ بـها، فكلّما كانتْ علاقتُك معَها مُدركَةً بـحواسِّكَ كانتْ أظهرَ بالنّسبةِ لكَ، وكلّما كانتْ تـحتاجُ منك إلى تفكّرٍ وتدبّرٍ في وجودِها كانَ وجودُها بالنّسبةِ لكَ أقلَّ ظُهوراً، فتحتاجُ إلى دليلٍ عليها.

ولو رجعتَ الآنَ إلى «وجودِ اللهِ» و»وجودِ العالمِ» ستلاحظُ أنَّ العالمَ هو ظرفُ وجودِك، تدركُهُ وتتفاعلُ معَه، تـجري عليكَ أحكامُ زمانِهِ، فهو

مثلُ الحافلةِ التي كنتَ راكباً فيها، فكرسيُّكَ في الحافلةِ هو مكانُكَ في العالمِ، وما كنتَ تراهُ من نافذتِـها هو ما تدركُهُ من العالمِ، والراكبونَ مِنْ حولِكَ هُمُ الموجوداتُ التي تشاركُكَ في ظرفِ العالمِ من البشرِ والشّجرِ والحجرِ والكواكبِ والسّماءِ والأرضِ... الخ

واللهُ تعالى هو «سببُ وجودِك في هذا العالمِ»...

بل هو سببُ وجودِ العالمِ بِكُلِّ ما فيه؛ حيثُ إنَّه «الـخالقُ» للعالَمِ، والعالَمُ هو «المخلوقُ» لهُ.

والعقـلُ البشـريُّ يُـدرِك الشّـيءَ أوّلاً، ثـمَّ يدركُ سـببَهُ، فأنتَ تـرى أولاً السّيارةَ المتحرّكـةَ، ثـمَّ بعـدَ هـذا تـدرِكُ أنَّه لا بدَّ لــها من سـائقٍ يُـحرِّكُها، وتسـمَعُ أولاً صـوتَ طَـرْقٍ بـابِ الحُجرةِ التي أنـتَ فيها، ثمَّ تـدركُ بعد ذلكَ وجـودَ الطّارقِ.

ـ كلامُكَ جميلٌ حقّاً ومفهومٌ يا سيّدي، ولكنْ لو سمحتَ لي أرى أنَّ فيه مشكلةً؛ وهي أنّنا نبحثُ الآنَ في مسألةِ الإيـمانِ بوجودِ اللهِ، يعني أنَّنا نريدُ الوصولَ إلى «دليلٍ» واضحٍ على وجودِهِ دون أن نكتفيَ بالتّقليدِ، ولكنَّكَ قلتَ قبلَ قليلٍ «اللهُ خالقٌ» و»العالمُ مـخلوقٌ»، دونَ أنْ تُبيّنَ لي ما الدّليلُ على هذا؟ لماذا لا يكون خَلْقُ العالمِ حصلَ بسببِ عواملَ فيزيائيّةٍ فيه، كأنْ يكونَ سببُهُ مثلاً الـ «big bang» وليس «اللهَ الخالقَ»، وهناكَ نظريّاتٌ فيزيائيةٌ أُخرى

تُفسِّرُ لنا ظهورَ العالمِ، فلماذا نُسَلِّم أنَّ اللهَ تـحديداً هو الـخالقُ للعالمِ؟ أو بـمعنًى آخَرَ، لماذا نقْبلُ أنَّ العالمَ مـحتاجٌ أصلاً إلى خالقٍ؟

ـ نعمْ، افتراضُكَ صحيحٌ، ولكنْ لا تستعجلِ الانتقالَ إلى فكرةٍ جديدةٍ حتى نـحرِّرَ تـماماً الفكرةَ التي نتكلمُ فيها الآنَ، وهي تـحديداً: أنَّ بعضَ الموجوداتِ أظهرُ من بعضٍ بالنّسبةِ لنا، وذلك بـحسَبِ تفاعلُنا معَها. فهل هي واضحةٌ تـماماً بالنّسبةِ لكَ؟

ـ نعم يا سيّدي، فَهِمتُها تـماماً.

ـ الفكرةُ الثّانيةُ هي أنَّ «الله» َ الذي سنتكلّمُ عنه، ونستدلُّ على وجودِه نعني به «الخالقَ»، فسنفرضُ أنَّ «العالمَ مـخلوقٌ» ولهُ «إلهٌ خالقٌ»، ثمَّ نـختبرُ هذا الفَرَضَ، هل سيقومُ عليه دليلٌ أم لا؟ وليس أيُّ دليلٍ، بل ـ كما قلنا سابقاً ـ دليلٌ يصلحُ للإيـمانِ به.

ـ تـمامٌ، وهذِهِ أيضاً مفهومةٌ.



(٨)
بدايةُ النَّظَرِ

ـ إذا كانَ وجودُ العالمِ أظهرَ من وجودِ اللهِ لأنّهُ مُدرَكٌ بالحسِّ فيجبُ أن نبدأَ بحثَنا من العالمِ وليس من اللهِ تعالى حتّى يكونَ بحثُنا مَنطِقياً.

ـ لم أفهمْ هذه النُّقطةَ جيداً يا سيّدي.

ـ كما اتّفقْنا سابقاً، فوجودُ العالمِ لا يحتاجُ منكَ إلى دليلٍ لتُصدّقَ بهِ، فلو بحثْنا في حقيقةِ وجودِهِ سيكونُ بحثُنا قد بدأَ على أساسٍ مَنطقيٍّ قويٍّ، وهو أنَّه موجودٌ أصلاً، فَيَصِحُّ لي أنْ أبحثَ بعدَ ذلكَ فيما يترتّبُ على هذا الوجودِ.

ولكنْ لو بدأْنا بحْثَنا في حقيقةِ وجودِ اللهِ تعالى سنقعُ في مشكلةٍ مَنطقيّةٍ، وهي أنّنا لم نثبتْ بعدُ وجودَهُ، فكيفَ نبحثُ ما يترتّبُ على وجودِهِ؟!

تماماً كمَنْ يطلبُ مني أن أحكمَ على لونِ سيّارةِ زيدٍ هل هي حمراءُ أم سوداءُ، وأنا لم أعرفْ بعدُ هل زيدٌ في الأساسِ عندَه سيارةٌ أم لا؟

فكيفَ سأحكمُ على لونِها؟!

إمّا أنْ أحكمَ بدونِ علمٍ، أو أقلّدَ قولاً لغيري سمعتُهُ يقولُ لي: سيارةُ

زيدٍ سوداءُ مثلاً، وكلٌّ منهما لا يُفيدُ في الإيـمانِ أمّا لو كنتُ رأيتُ سيارةَ زيدٍ بالفعلِ، صحَّ أنْ أخبرَكَ بلونِـها.

ـ واللهُ تعالى الذي نـحنُ الآنَ في صددِ البحثِ في الإيـمانِ بوجودِهِ، في تصوّرنا هو «الخالقُ»، فهل تستطيعُ مَنطقياً أن تـحكمَ الآنَ بأنّه هو الخالقُ للعالمِ؟!

ـ بحسَبِ ما فهمتُ من كلامِكُم لا؛ لأنّي حتّى أحكمَ بأنّه الـخالقُ يجبُ أولاً أن أحكمَ هل هو موجودٌ أم لا، ونحنُ إلى الآنَ لم نصلْ لـهذا الدّليلِ.

ـ تـماماً، ولكن لو طلبتُ منكَ أن تحكمَ الآنَ هل العالمُ «مخلوقٌ» أم لا كانَ سؤالاً منطقياً لأنّنا لا نحتاجُ دليلاً على وجودِ العالمِ، لنُصَدِّقَ به تصديقاً جازماً كما اتّفقْنا سابقاً.

ـ الآنَ فهمتُ يا سيّدي، فالأسلمُ منطقياً إذنْ أن نبدأَ بـحثَنا من العالمِ، ولكنْ سنبحثُ فيه من أيِّ حيثيّةٍ؟ أقصدُ كيفَ سيوصلُنا العالمُ إلى التّصديقِ بوجودِ إلهٍ أو عدمِ وجودِهِ؟

ـ سنبحثُ في العالَمِ من الحيثيّةِ التي ذكرتُها لكَ قبلَ قليلٍ، هل العالمُ «مـخلوقٌ» أم لا؟

ونقصدُ بـها تحديداً: هل العالَمُ مـحتاجٌ إلى مُوجِدٍ له، أم أنَّ وجودَه من ذاتِه؟ فإن كانَ وجودُهُ من ذاتِه فليس مـخلوقاً، وإن كانَ مـُحتاجاً إلى مُوجِدٍ

وسببٍ لوجودِه فما هي الأوصافُ التي يـجبُ أن تكونَ في هذا المُوجِدِ حتى يَصِحَّ مَنطقياً أن يُسمَّى «خالقاً» فنختبرَها؟

ثمَّ إذا ثبتَ لدينا أنَّ العالَـمَ لا يُـمكنُ أن يوجدَ إلا إنْ كانَ خالقُهُ مُتَّصِفاً بـهذه «الصفاتِ»، حَصَلَ عندنا التصوّرُ الكافي في الإيـمانِ باللهِ تعالى، المُتَّصِفِ بصفاتِ «الخالِق».

فهذه هي خارطةُ الطّريقِ في بَـحثِنا.



(٩)
النَّظرُ في العالِمِ

الآنَ يا بنيّ بدأ البحثُ الحقيقيُّ المُوصلُ إلى الإيـمانِ، وهذه البدايةُ كما قُلْنا ستكونُ من العالَمِ، وتحديداً سنبدأُ منكَ أنتَ، فأنتَ جُزْءٌ من هذا العالَمِ الموجودِ، فأرجو منكَ التركيزَ جَيِّداً:

هل وُجودُكَ في هذا العالَمِ ضروريٌّ؟

ـ لم أفهمْ ماذا تَقصِدُ «بالوجودِ الضروريِّ».

ـ يعني هل يُـمكنُ أن يكونَ العالَمُ خالياً عنكَ، بحيثُ يكونُ العالَمُ موجوداً وأنتَ معدومٌ؟

ـ طبعاً قبلَ ولادتي كانَ العالَمُ موجوداً وأنا لم أوجدْ بعدُ.

ـ وكذلكَ سيأتي عليك زمانٌ تـموتُ فيه ويبقى العالَمُ موجوداً، أليس كذلكَ؟

ـ بلى.

ـ إذنْ وجودُك في هذا العالَمِ ليس ضرورةً عقليّةً[1]، فأنتَ كنت عَدَماً،

---

(١) الضرورة العقلية هي الأمر الذي لا يُمكن إنكار ثبوته

ثمَّ أصبحتَ موجوداً، ثمَّ ستُصبحُ عَدَماً، فَهَلّا سألتَ نَفسَكَ إذنْ ما هي حقيقةُ وجودِك المتغيِّرِ هكذا؟

ـ عفواً يا سيّدي، لكنّي أرى أنَّ البحثَ أصبحَ أصعبَ من ذي قبلُ...

حسناً لا أظنُّ أنّي عرفتُ ما هي حقيقةُ وجودِي المتغيّرِ هذا.

ـ اسمحْ لي هُنا أنْ أستعملَ «مُصطلحاً» خاصّاً، على الرغمِ من طلبِك عدمَ استخدامِ المصطلحاتِ، وأنا أعدُكَ بعدمِ استخدامِها إلا إذا كانَ المعنى لا يتَّضِحُ إلا بذكرِ المصطلحِ، وهذا المصطلحُ هو «المُمْكِنُ»، وأقصدُ به: ما يـقبل الوجودَ والعدمَ.

ـ هل يُـمْكنكَ يا سيّدي أنِ تُوضِّحَ لي بـمثالٍ؟

ـ حسناً...

في مثالِ سيارةِ زيدٍ الذي تكلّمْنا فيه سابقاً، سألْنا سؤالاً: هل هي حمراءُ أو سوداءُ؟

لاحظْ أنَّ وجودَ السّيارةِ باللّونِ الأحمرِ كانَ مُـحتَمِلاً، وكذا وجودُها باللّونِ الأسودِ مُحتَمِلٌ أيضاً، فأنتَ تعلمُ قطعاً أنَّ وجودَها باللّونِ الأحمرِ ليسَ ضرورياً، بل قدْ توجَدُ بغيرِه، ولذلكَ صحَّ سؤالي من الأساسِ، فلو كانتِ السّيارةُ لا تَقبَلُ إلا لوناً واحداً لكانَ سؤالي عبثاً، ولا يكونُ اللّونُ الأحمرُ والأسودُ «مُمكِناً» للسّيارةِ.

ألا ترى أنّي لو سألتُكَ هل للمُثلّثِ ثلاثُ زوايا أم أربعٌ كانَ السؤالُ عبثاً؛ حيثُ إنَّ المثلّثَ ـ من حيثُ هو مُثلّثٌ ـ معناهُ ما له ثلاثُ زوايا...

فإنْ فرضْنَا شَكْلاً له أربعُ زوايا فهو قَطعاً ليس مثلّثاً؛ لأنَّ الزّوايا الثّلاثَ للمثلّثِ «ضروريُّة»، فهذا الوجودُ الضروريُّ يُسمَّى «واجباً» وغيرُ الضروريِّ يُسمّى «مـمكناً».

ـ هـلاّ ضَرَبـتَ لي مثـالاً آخرَ لو تكرّمتَ حتّـى أتأكدَ أنّي فهمتُ تـماماً معنى الواجـبِ والممكنِ.

ـ لو كانَ أمامَنا مجموعةٌ من البطاقاتِ، وكلُّ بطاقةٍ مكتوبٌ عليها رَقَمٌ مُعيَّنٌ، وطلبتُ منكَ أن تـختارَ بطاقةً عشوائيّاً منها وتَسحَبَها بيدكَ بـحيثُ لا أرى أنا ما هو الرّقمُ المُدوَّنُ عليها، فـمع أنّي لم أرى الرّقمَ إلا أنّي سأعلَم قطعاً أمرَينِ اثنينِ:

١ ـ يـجبُ أن يكونَ هذا الرّقمُ إمّا رَقَماً زوجيّاً أو فَرديّاً؛ لأنَّ أيَّ رَقَمٍ يـجبُ أنْ لا يـخرجَ عنهما.

٢ ـ أنَّ كلَّ احتمالٍ بعَينه مِنهُما فهو «مـمكنٌ»، أي مـمكنٌ أن تكونَ البطاقةُ ذاتَ رقمٍ زوجيٍّ ويـمكنُ أن تكونَ ذاتَ رقمٍ فرديٍّ؛ لأنَّ الزوجيّةَ ليستْ واجبةً للرّقمِ، وكذا الفرديّةُ، فهل وَضَحَ بالنّسبةِ لكَ الفرقُ بين الواجِبِ والممكنِ؟

ـ نعم وَضَحَ تـماماً، وعليه سيكونُ وجودِي في العالَمِ مـمكناً وليس

واجباً، لأنّي أكونُ موجوداً في زمانٍ، ومعدوماً في زمانٍ آخرَ، فلو كانَ وجودِي واجباً لما جازَ أن أُعدَمَ أبداً.

ـ أحسنتَ، هو ذا... وجودُك «ممكنٌ» لأنّكَ تقبلُ الوجودَ وتقبلُ العدمَ، فهذهِ هي حقيقةُ وجودِك، أنّكَ «ممكنٌ».

ولكنْ هلْ وجودُ الممكنِ يحتاجُ إلى سببٍ، أم يُمكنُ أن يُوجدَ الممكنُ بنفسِهِ؟

ـ بما أنَّه يحتملُ الوجودَ ويحتملُ العدمَ فيجبُ أنْ يكونَ هناكَ مَنْ يختارُ أحدَهما.

ـ نعمْ، فالممكنُ بما أنَّه يقبلُ احتمالَينِ أو أكثرَ، فيجبُ أنْ يكونَ هناكَ مَنْ يُرجِّحُ أحدَهما، تماماً كما لو كانَ معَنا كُرَةٌ، يمكنُ أنْ تتحركَ يميناً أو يساراً أو في أيِّ جهةٍ أُخرى، وذلكَ لأنّها كرةٌ تقبلُ في ذاتِها التحرّكَ في سائرِ الجهاتِ، فلا بدَ أنْ يكونَ هناكَ مَنْ يختارُ أن يُحرِّكَها إلى جهةٍ بعَينها دونَ سائرِ الجهاتِ. ولكنْ برأيكَ هلْ يَصحُّ أنْ تكونَ الكرةُ هي التي تختارُ حركتَها إلى جِهَةٍ بِعَينها؟

ـ طبعاً لا؛ لأنّها ليستْ عاقلةً لتختارَ.

ـ حسناً.... جيدٌ هذا صحيحٌ، فالمختارُ يجبُ أنْ يكونَ مُدرِكاً عاقِلاً، ولكنْ هناكَ أمرٌ قبلَ ذلكَ يجبُ ملاحظتُهُ، وهو أنَّ الكرةَ من حيثُ هي كرةٌ

تَقبلُ الحركةَ في جميعِ الجهاتِ كما قُلْنا، وبعبارةٍ أكثرَ وضوحاً: الـجهاتُ بالنّسبةِ إلى نفسِ الكرةِ متساويةٌ في الاحتمالِ والإمكانِ، ولا مِيزةَ لـجهةٍ على أخرى بالنَّظرِ إلى نفسِ الكُرةِ.

ولذلكَ إذا أدركتَ أنَّ حركةَ الكرةِ إلى جهةٍ بِعَينِها مـمكنةٌ، فهذا يعني أنّـها تـحتاجُ إلى مَنْ يختارُ ويُرَجِّحُ هذه الجهةَ دونَ غَيرِها، وهو المختارُ أو المـرَجِّحُ، إذن هو شيءٌ غيرُ الكرةِ.

ونستطيعُ أن نُعَمّمَ هذا المثالَ فنقولُ: «الممكنُ» يقبلُ الوجودَ والعَدَمَ، بـمعنى أنَّ ذاتَ الممكنِ تـحتملُهما معاً على السّواءِ، فكلُّ مـمكنٍ لا بدَّ لهُ من مُـختارٍ «مُرَجِّحٍ» يـختارُ لهُ أحدَ الاحتمالينِ دونَ غيرِه، وهذا المختارُ يجبُ أنْ يكونَ غيرَ الممكنِ؛ لأنَّ احتمالَ وجودِ الممكنِ مُساوٍ لاحتمالِ عَدَمِه بالنّظرِ إلى نفسِ الممكنِ، والتّساوي ليسَ فيه ترجيحٌ طبعاً، ولذلك يـجبُ أن يكونَ الـمرجِّحُ شيئاً آخرَ غيرَهُ.

ـ فمَنْ هو إذنْ القادرُ على التّرجيحِ للممكنِ يا سيّدي؟

ـ سنؤجِّلُ الكلامَ في «المرجِّحِ» قليلاً حتى تكتملَ فكرتَنا عن «الممكنِ».

إذنْ وصلْنا إلى أنَّك مـمكنٌ، فوجودُك يـحتاجُ إلى مرجِّحٍ له على عَدَمه.

وهذا المـرَجِّحُ يـجبُ أنْ يكونَ غيرَك، فأنتَ غيرُ قادرٍ على إيـجادِ نفسِك من حيثُ إنّكَ مـمكنٌ.

ـ نعمْ إلى هنا فالأمرُ واضحٌ.

ـ إذا كانَ كلامُنا فيما سَبَقَ عن نفسِكَ، فلننتقلْ في الكلامِ عن الصّفاتِ التي تتّصفُ بـها، ولنختَرْ مثلاً صفةَ الطُّولِ...

لو فكَّرتَ في هذه الصّفةِ على وَفقِ الميزانِ الذي ذكَرْناه لوجدتَ أنَّه يصدُقُ عليها أيضاً أنَّهُا «مـمكنٌ»؛ لأنَّ طولَكَ هذا ليسَ واجباً «ضروريّاً»، حيثُ إنّنا نتصوّرُ أنّه يـمكنُ أنْ تكونَ أطولَ مـما أنتَ عليه أو أقصَرَ، بل لو نظرتَ في صُوَرِكَ القديـمةِ لوَجدتَ أنَّ طولَكَ يتغيّرُ مع الزَّمنِ، فطولُك قبلَ عشرِ سنواتٍ ليسَ كطولِكَ الآنَ.

فصفةُ الطُّولِ متغيّرةٌ، لِذا هي مـمكنةٌ.

ـ إنْ كانتِ الصّفةُ مـمكنةً فهي أيضاً تـحتاجُ إلى مُرَجِّحٍ، أليسَ كذلكَ؟

ـ نعمْ هذا صحيحٌ، فلو قلْنا إنَّ طولَك الآنَ ١٨٠ سم، فنحنُ نعلمُ أنَّه كانَ يـمكنُ أنْ يكونَ ١٧٠ مثلاً أو ١٩٠، فرقمُ ١٨٠ ليسَ واجباً لمقدارِ طولِكَ بل يـمكنُ أنْ يزيدَ أو ينقُصَ، ولذا حتى يكَونَ طولُك له مقدارٌ مـحدّدٌ لا بدَّ له من مُـخَصِّصٍ.

ـ ولكنْ بـهذهِ الطّريقةِ ستكونُ جميعُ صفاتي مـمكنةً، أليسَ كذلكَ يا سيّدي؟

ـ نعمْ، لأنَّ الأمرَ لو فكّرتَ فيه كما يلي ستجدُهُ واضحاً ومنطقيّاً:

١ ـ أنتَ موجودٌ ممكنٌ.

٢ ـ كلُّ الصّفاتِ التي يتَّصفُ بها الموجودُ الممكنُ ستكونُ ممكنةً مثلَهُ.

٣ ـ إذنْ صفاتُكَ ممكنةٌ.

ـ طيب... لو سمحتم لي سأعيدُ صياغةَ كلامِكَ الأخيرِ لأتأكّدَ هل فَهِمتُ جيّداً أم لا:

١ ـ أنا ذاتٌ موجودةٌ متّصفةٌ بمجموعةٍ من الصّفاتِ.

٢ ـ ذاتي ممكنةٌ، بمعنى أنّها تحتمل أنَ تكونَ موجودةً أو غيرَ موجودةٍ.

٣ ـ فلو فرضتُ ذاتي غيرَ موجودةٍ يجبُ أنْ تكونَ الصّفاتُ التي أتّصفُ بها الآنَ غيرَ موجودةٍ.

٤ ـ وبالتالي صفاتي أيضاً تحتمل أن تكونَ موجودةً أو غيرَ موجودةٍ تَبَعاً لذاتي.

ـ أحسنتَ، كلامٌ سليمٌ تماماً، ونَصِلُ منهُ إلى النّتيجةِ التّاليةِ:

١ ـ أنتَ (بذاتِكَ وصفاتِكَ) ممكنٌ.

٢ ـ وكلُّ ممكنٍ يحتاجُ إلى مرجِّحٍ غيرِهِ.

٣ ـ وبالتالي أنتَ تحتاجُ إلى مرجِّحٍ، يكونُ شيئاً غيرَك.

ـ تمامٌ، وَضَحَتِ النّتيجةُ الآنَ.

ـ كلُّ ما قلْنا يا بُنيّ عن إمكانِكَ ستجدُ أنَّهُ صادقٌ تـماماً على العالمِ بكلِّ ما فيه، فكلُّ شيءٍ في العالَمِ لو فكَّرتَ فيه على المِنوالِ السّابقِ لوجدتَه متغيِّراً، وفي بعضِهِ ترى التغيُّرَ بعَينِك، وفي بعضِه الآخرِ تُدركُهُ بعقلِكَ، وكلُّ ما كانَ متغيِّراً فهو مـمكنٌ يـحتاجُ إلى المرَجِّحِ.

ـ هلاَ فَصَّلتَ أكثرَ في «إمكانِ العالَمِ» يا سيّدي.

ـ اعلمْ يا بنيّ أنَّكَ صورةٌ مُصغَّرةٌ عن العالَمِ الفَسيحِ المـُترامي الأطرافِ، ولو تَفكَّرتَ في نفسِكَ وفي العالَمِ بعقلِكَ وليس فقطْ بـحواسِّكَ لأدركتَ أنّكما متماثلانِ في الحقيقةِ، ولذلكَ كانَ علينا بدءُ البحثِ من أنفسِنا لنَصِلَ إلى حقيقةٍ ستُعَمَّمُ بعدَ ذلكَ لتشملَ العالَـمَ بكلِّ ما فيه، وأنتَ بعضُ ما فيه...

تَصوَّرْ لو قلتُ لكَ: هنا يوجدُ مـجموعةٌ من البشرِ، فانظرْ فيهم.

ففي البدايةِ سترى أنّهم أحمدُ وخالدٌ وسعيدٌ وعائشةُ ومريـمُ... الخ

فأوَّلُ نَظَرِكَ فيهم سَتُلاحظُ اختلافَهم، فبعضُهُم ذكورٌ وبعضُهُم إناثٌ، وكلُّ واحدٍ من الذّكورِ يـختلفُ عن الآخرِ:

فأحمدُ أبيضُ طويلٌ...

وخالدٌ أسمرُ متوسطُ الطّولِ...

وسعيدٌ كذلكَ.

ونفسُ الأمرِ سينطبقُ على الإناثِ.

ففي البدايةِ لن نلاحظَ إلا الاختلافَ، لأنّهُ هو ما نشاهدُهُ بعيننا ونُدركُه بحواسِّنا.

ولكن إذا بدأتَ التعمّقَ في البحثِ في هؤلاءِ المجموعةِ من البشرِ وسألتَ عنهم، ستجدُ أنَّ أحمدَ طالبٌ في الـجامعةِ، وخالدٌ طالبٌ في المعهدِ، وسعيدٌ طالبٌ في المدرسةِ، وعائشةُ طالبةٌ في الـجامعةِ ومريمُ طالبةٌ في المدرسةِ...

ستُدرِكُ الآنَ على الرّغمِ من اختلافِ صُوَرِهم وجنسِهِم إلّا أنّهم في الحقيقةِ يشتركون في حُكمٍ واحدٍ، ألَاَ وهو أنّهم «طلابٌ»...

وهذا المثالُ قسْ عليه العالَمَ، ففي بدايةِ تعرّفِكَ عليه ستراهُ شمساً وقمراً وأشجاراً وبُحيراتٍ وإنساناً وحيواناً... الخ

لكن لو دَقَّقتَ فيها كُلِّها وَنَظَرتَ فيها نظراً عقليّاً وليسَ فقط حسيّاً لَعَرفتَ أنّها كلَّها لـها حقيقةٌ واحدةٌ، وأنّكَ جزءٌ من هذه الحقيقةِ المُشتركَةِ من حيثُ إنّكَ جزءٌ من العالَمِ.

ـ وما هذه الحقيقةُ «الكونيّةُ» يا سيّدي؟!

ـ إنّها «الإمكانُ»، نعم هي كلمةٌ واحدةٌ لكنّها صادقةٌ على العالَمِ بكلِّ ما فيهِ...

العالَمُ ممكنٌ

لأنَّ كلَّ ما فيه مـمكنٌ

فالشمسُ مثلاً لو نظرتَ إليها نظراً حسيّاً فقط لقلتَ: هي جسمٌ مضيءٌ يتحركُ من المشرقِ إلى المغربِ، ولن تُدرِكَ إلا ما به تـميَّزَتْ عن غيرِها من الموجوداتِ في العالَمِ. لكن لو تجرَّدتَ عن الحواسِّ قليلاً، ونظرتَ فيها نظراً عقليّاً ستجدُ أنَّ المثالَ الذي ذكرناهُ عن حركةِ الكرةِ، وتساوي احتمالِ حركتِها إلى جميعِ الجهاتِ، ستجدُهُ مُنطَبِقاً تـماماً على «كرةِ الشّمسِ»؛ فَحَرَكَتُها من المشرقِ إلى المغربِ ليسَ واجباً لذاتِ الشّمسِ، بل يُـمكنُ تـخيُّلُ إمكانِ حَرَكَتِها من المغربِ إلى المشرقِ، ومِن ثَمَّ فحركتُها في جهةٍ بعينها لا بدَّ له من مرَجِّحٍ.

ـ ولكن يا سيّدي؛ أليستْ حركتُها من المشرقِ إلى المغربِ بسببِ عواملَ فيزيائيّةٍ كونيّةٍ، يتحركُ بسببِها قرصُ الشّمسِ في هذا الاتـّجاهِ؟

ـ كما أخبرتُكَ عدّةَ مرّاتٍ سابقاً، سنؤجِّلُ الكلامَ في «المُرَجِّحِ» الآنَ ونركّزُ كلامَنا على «إمكانِ العالَمِ»؛ فالشمسُ من حيثُ هي جسمٌ ـ أي بدونِ ملاحظةِ أيِّ أثرٍ خارجيٍّ عنها ـ يـمكنُ أن تتحركَ في أيّ اتـّجاهٍ كجسمِ الكرةِ التي تعرفُها.

فلو سألتُكَ: هل الحركةُ من المشرقِ إلى المغربِ أمرٌ واجبٌ للشّمسِ

من حيثُ هي جسمٌ، أم أنَّ هناكَ سبباً غيرَها يـجعلُها تتحركُ في هذا الاتّـجاهِ؟

ـ الجسمُ من حيثُ هو جسمٌ لا تترجحُ له جهةُ حركةٍ معيّنةٍ بـحسبِ ما فَهمتُ، وبالتالي فالمُحَرِّكُ بـجهةٍ بعينِها أمرٌ آخرُ غيرُ ذاتِ الشّمسِ، صحيحٌ؟

ـ نعم، صحيحٌ.

وهذا الذي قُلْناه في الشّمسِ قِسْ عليه كلَّ متحَرِّكٍ في العالَم الذي لا يـخلو عن حركةٍ فَكُلُّها تـحتاجُ إلى مخصِّصٍ ومُرَجِّحٍ لحركتِها.

ـ هل احتياجُها إلى «المُرَجِّحِ» إنّما هو بسببِ حركتِها فقط؟

ـ كلّا، بلْ يُقالُ فيها ما قلْناه فيكَ تـماماً، فكما أنَّ ذاتَك مـمكنةٌ، إذنْ كلُّ صفاتِكَ التي تتّصفُ بـها ذاتُكَ مـمكنةٌ كذلكَ.

والعالَمُ مـمكنٌ، فكلُّ الأوصافِ التي يتّصفُ بـها العالَمُ مـمكنةٌ كذلكَ، فما مِنْ جسمٍ في العالَمِ إلّا وهناكَ احتمالٌ أنْ يكونَ مقدارُه أكبرَ أو أصغرَ مـمّا هو عليه الآنَ، فلذا مقدارُهُ الآنَ مـحتاجٌ إلى «المرجّحِ المخصّصِ»، وما مِنْ لونٍ تتلوّنُ به أجسامُ العالَمِ إلا ويُتصوَّرُ أنْ تتلوّنَ بغيرِهِ، فلونـُها الآنَ مـحتاجٌ إلى «المرَجِّحِ المُخَصصِ».

وهكذا ما مِنْ وَصْفٍ منسوبٍ للعالَمِ إلا وهو مـحتاجٌ إلى مُخَصّصٍ مُرَجِّحٍ.

ـ لكن يا سيّدي، عَرَفنا أنَّ ذاتي مـمكنةٌ من خلالِ النَّظرِ في أنّي كنتُ عَدَماً ثمَّ أصبحتُ موجوداً، وبالتالي فأنا أحتَملُ الوجودَ والعدمَ، لكنْ كيفَ أعرفُ أنَّ العالَـمَ كذلكَ يحتَمِلُ العَدَمَ؟!

ـ حَسَناً، فـي الجـوابِ عن هـذا السّـؤالِ مسـلَكٌ فيزيائيٌّ وآخَـرُ منطقيٌّ عقليٌّ...

أمّا الفيزيائيُّ فسيقولُ لكَ إنَّ هذا الكونَ لم يكنْ موجوداً، ثمَّ حَصَلَ له الانفجارُ العظيمُ الذي بدأَ وجودُ العالَمِ معَه، ففيزيائيّاً العالَـمُ يقبلُ الوجودَ ـ كما هو عليه الآنَ ـ ويقبلُ العَدَمَ ـ كما كانَ عليه قبلَ الانفجارِ العظيمِ ـ وهذا هو تعريفُنا أصلاً للممكنِ.

ـ أما المَـسلكُ المنطقيُّ العقليُّ فيحتاجُ إلى بعضِ التّفصيلِ، أذكرُهُ لكَ مـُختصَراً لأنَّ أذانَ المغرب على وَشْكِ أن يُسمَعَ، وسنضطرُ إلى إنـهاءِ جلستِنا بعدَهُ لأجلِ الصّلاةِ بعدَ إذنِكَ.

ـ أستغفرُ اللهَ، طبعاً يا سيّدي براحتِكُم.

ـ حسناً.. تفكّرْ فيما تراهُ في العالَمِ تكتشفْ أنّكَ ترى تعاقبَ الوجودِ والعَدَمِ في كلِّ ما حولَكَ.

ـ وكيفَ هذا يا سيّدي؟!

ـ ألا تلاحظُ أنّكَ تشاهدُ التغيّرَ في العالَمِ مِن حولِك على الدّوامِ؟

ترى تعاقبَ اللّيلِ والنّهارِ، وتعاقبَ الحركةِ والسّكونِ، والموتِ والحياةِ، والصّيفِ والشّتاءِ، والشّبابِ والشّيخوخةِ..... الخ

كلُّ ما حولَك متغيّرٌ، فما هو معنى التَّغيُّرُ؟

ـ أليسَ معناهُ التّبدّلُ من حالٍ إلى حالٍ؟

ـ بلى، فكلُّ متغيّرٌ يعني أنَّهُ يقبلُ أحوالاً مختلفةً، فالإنسانُ متغيِّرٌ؛ لأنَّهُ يَقبلُ الموتَ والحياةَ، والصّحةَ والمَرَضَ، والشّبابَ والشّيخوخةَ، والسّعادةَ والحُزْنَ... الخ

فتغيّرُهُ دالٌّ أنَّه يقبلُ كلَّ هذه الأمورِ، وهذا يّدُلُّكَ على ماذا؟

ـ يَدُلُّني على إمكانِ كلِّ هذهِ الأمورِ، وإمكانِ الإنسانِ الذي يقبلُ هذه الأمورَ، وبالتالي احتياجُهُ إلى المرّجِّحِ في كُلِّ شأْنٍ منها.

ـ أحسنتَ، فكلُّ متغيّرٍ ممكنٌ؛ لأنَّ التغيّرَ يدلُّ أنَّه يُمكنُ أنْ تَمرَّ عليه أحوالٌ مُختلفةٌ، فَكلُّ حالٍ منها لا بُدَّ له من مخصّصٍ يجعلُ الشيءَ يتصّفُ به دونَ غيرِه.

والعالَمُ المُشَاهَدُ تغيّرُهُ ممكنٌ لأجلِ ذلكَ.

ـ فَهِمتُ هذا تماماً، ولكن يا سيّدي كلامُكم هو في ما نشاهدُهُ من التغيّرِ، لكنْ أليس العالَمُ أكبرَ بكثيرٍ ممّا نشاهدُهُ، بل نحنُ لا نَعلَمُ إلا جزءاً يسيراً منه، فكيفَ سأحكمُ أنَّ الذي لا أراهُ من العالَم هو متغيّرٌ أيضاً؟

ـ سؤالٌ مـمتازٌ...

فيزيائياً العالَمُ بدأ بالانفجارِ العظيمِ، فالعالَمُ ـ بكلِّ ما فيه ـ تَغَيّرَ من حالِ العَدَمِ إلى حالِ الوجودِ، وهذا الحكمُ عامٌّ فيما شاهدْناه، وفيما لم نشاهدْهُ.

أمّا عقلاً، فَنَقيسُ ما لا نشاهدُهُ على ما نشاهدُهُ، بـمعنى أنَّ الشمسَ مثلاً هل هي متحركةٌ لأنّها «شمسٌ» فقط، أم لأنّها جسمٌ؟

ـ لأنَّها جسمٌ.

ـ فَقِسْ عليها كلَّ جسمٍ سَيَقبلُ الحركةَ وهكذا..

والآن يا بُنيّ نحنُ مضطرون لإنـهاءِ هذا المجلسِ للّحاقِ بالصّلاةِ، وغداً إن شاءَ اللهُ نلتقي في نفسِ الزّمانِ والمكانِ، على أن تُفَكِّرَ جَيِّداً فيما وصلْنا إليه عن إمكانِ العالَمِ، واحتياجِهِ إلى مُرَجِّحٍ له.

ـ نَعَم أعِدُكَ يا سيّدي بـهذا. وشكراً على سِعَةِ صَدرِكَ.



(١٠)
إشكالاتٌ

لم أكنْ أتوقعُ أبداً أنَّ الإيـمانَ باللهِ يـحتاجُ كلَّ هذا البحثِ الدّقيقِ، بل نحنُ ما زلنا في أولِ الطّريقِ فقط، ومع هذا خُضْنا في كلِّ تلكَ التّفاصيلِ...

كنتُ أظنُّ أنَّ الشيخَ سَيَسْرُدُ لي آياتٍ من القرآنِ والأحاديثِ تتكلّمُ عن وجودِ اللهِ، ثمَّ يطلبُ منّي التّصديقَ بـها، ولكنّه استرسلَ في الأفكارِ والنَّظَرِ العقليِّ الواحدِ تلوَ الواحدِ، مع حشْدٍ كثيرٍ من الأمثلةِ توضّحُ المطلوبَ.

في الحقيقةِ أُعجِبْتُ كثيراً بـهذه الطّريقةِ؛ لأنّني اقتنعتُ بأنَّ التقليدَ «شأْنُ العُمْيانِ» كما ذكرَ الشّيخُ، والإيـمانُ الأكملُ هو الذي سَأصِلُ إليه بالبرهانِ، ولكنْ...

لماذا البحثُ في الإيـمانِ بـهذه الصّعوبةِ؟!

هل هذا أمرٌ حسنٌ أن يكونَ الوصولُ إلى اللهِ بـهذه المَشقّةِ، بـحيثُ يُدرِكُ الإنسانُ قيمةَ هذا الإيـمانِ، وأنَّهُ ليس مُـجرَّدَ أقوالٍ نتناقَلُها جيلاً عن جيلٍ مُقلِّدينَ لـها، وإنّما «مُـحَقِّقينَ» للبراهِينِ؟

أم أنَّ هذه الصّعوبةَ ستكونُ صارفةً للكثيرينَ عن البحثِ والنَّظَرِ، لانَّهُ أمرٌ

لا يألَفُهُ أغلبُ الناس، فالغالبُ يريدُ النتيجةَ مباشرةً، ولا يَهُمُّه طريقُ الوصولِ إليها، فإذا بدأَ في هذا الطَّريقِ من البحثِ في الإيـمانِ استسلمَ وهو في أوَّلِ الطريقِ؟

حَسَناً...

أظنُّ أنَّ هذا السّؤالَ مـمّا ينبغي مناقشتُهُ.

وأيضاً راوَدَني سؤالٌ لم أستطعْ أنْ أصوغَهُ بطريقةٍ صحيحةٍ طولَ حديثِ الشّيخِ عن أنَّ الممكنَ يحتاجُ إلى مرجّحٍ غيرِه، خصوصاً عندما بدأَ الحديثَ عن «إمكانِ صفاتي»، فهل حقّاً «طولي» يحتاجُ إلى مرجّحٍ من غيري؟!

أليسَ في جسمي كُرومُوسُوماتٌ تـُحـَدِّدُ جميعَ الصّفاتِ التـي أتَّصِفُ بـها من طولٍ ولونٍ وشكلٍ... الخ، وهذِهِ الكُرومُوسُوماتُ جزءٌ منّـي، فلماذا أحتاجُ غيري ليُرَجِّحَ صفاتي؟!

والعالَمُ الذي نشأَ عقيبَ الانفجارِ العظيمِ لماذا أيضاً لا نتصوَّرُ أنَّ انفجارَه كانَ بسببِ أمرٍ فيه، دونَ الحاجةِ إلى مُرجِّحٍ غيرِه؟!

أظنُّ حلَّ هذه الإشكالاتِ ضروريّاً قبلَ الاسترسالِ في بَـحْثِنا.



(١١)

انتظرتُ حتى فرغَ الشّيخُ من صلاةِ العصر، وسَلَّمَ عليه بعضُ المصلّينَ، وتوجّهَ عقيبَ ذلكَ إلى مكتبةِ المسجدِ، فما أنْ دخلَها حتى انقضضْتُ عليها طمعاً أن لا يسبقَني أحدٌ في الدّخولِ للخَلْوَةِ معَ الشّيخِ، لأنّي أظنُّ أنَّ المجلسَ لو كانَ فيه غيرُنا لن أتمكّنَ من طرحِ أسئلتِي التي راودتْني البارحةَ بأريحيّةٍ، خاصةً أنّها كانتْ ثمرةَ حِوارٍ طويلٍ بينَنا، فيصعبُ على مَنْ لم يحضُرْ هذا الحوارَ أنْ يفهمَ كيفَ راودتني تلكَ الأسئلةُ.

ما أنْ رآني على بابِ المكتبةِ حتى ابتسمَ ابتسامةَ رضًا أنّي رجعتُ حقّاً في اليومِ التالي، وأظنّه كان راضياً عن جِدّيتي في البحثِ وعدمِ تكاسلِي في متابعةِ الحِوارِ على الرّغمِ منْ صعوبتِه عليّ بالأمسِ.

ـ مرحباً يا بنيّ...

أراكَ أتيتَ في المَوعدِ المُحددِ تماماً، وما أرى هذا إلا بسببِ أسئلةٍ أرَّقَتْكَ البارحةَ بعدَ جلستِنا.

قالها وما يَزالُ يبتسمُ ابتسامةَ الرّضا التي في الحقيقةِ شجَّعتْني لأفرّغَ كلَّ ما في جَعْبتي التي امتلأتِ البارحةَ.

بادلتُهُ الابتسامَ...

ـ نعم يا سيّدي، كانتْ ليلةً حافلةً، وأَعْجبُ ما فيها أنّه ما مِنْ سؤالٍ أفكّرُ فيه إلا ويـجرَّ عليّ في نفسِي عدّةَ أسئلةٍ، حتى يكادَ يطلُعُ عليّ الفجرُ دونَ أن يتوقفَ تواردُها عليّ.

ـ هذا جيّدٌ، وهو يدّلُ أنّك فكّرتَ عميقاً بـما تَباحَثْنا به أمسِ، ومن الـجيّدِ، بل الأفضلِ أنْ تكونَ قادراً على صياغةِ الفكرةِ الموجودةِ في ذهنِكَ بسؤالٍ واضحٍ مـُحدّدٍ، فهذا أمرٌ يـحتاجُ إلى تدريبٍ، فالقدرةُ على اختيارِ الكلماتِ المناسبةِ التي تُعَبِّرُ تـماماً عن مرُادِك ليس بالأمرِ الـهـيِّنِ، فالأفكارُ وهي حبيسةُ نفسِك لن يَطَّلِعَ عليها أحدٌ، لذا فاختيارُكَ للكلماتِ هو الطّريقُ الوَحيدُ لإيصالِ أفكارِك إلى غيرِك، وما لم تَكُنْ دقيقاً في اختيارِ الألفاظِ لن يَصِلَ مُرادُكَ كما هو موجودٌ في نَفسِك، ولذا قالوا قديـماً:

«حُسنُ السّؤالِ نِصفُ العِلمِ».

ـ سأحاولُ يا سيّدي...

لماذا كلّما تَقدَّمْنا في البحثِ يُصبحُ أكثرَ صعوبةً؟!

في البدايةِ كانَ الكلامُ مفهوماً وواضحاً، ثمَّ أصبحَ لا يُفهمُ إلا بشرحٍ وتـحليلٍ، وأظنّه لن يُفهمَ بعد ذلكَ إلى بتفكيرٍ عميقٍ.

فلماذا لا يكونُ الإيـمانُ واضحاً حتـى يَسهُلَ الوصولُ إليه بشكلٍ يسيرٍ مباشرٍ؟!

ـ لا بدَّ يا بنيّ أن تُدرِكَ **أوّلاً** أنَّ «وضوحَ الفكرةِ» أمرٌ نسبيٌّ، لا يـحصُلُ بدرجةٍ واحدةٍ للجميعِ، فلو تكلّمتُ معَكَ بـمسألةٍ رياضيّةٍ وأنتَ لم تدرُسْ هذا العلمَ لكانتِ الفكرةُ غيرَ واضحةٍ بالنّسبةِ لكَ، ولكنّها لنْ تكونَ كذلكَ في حقِّ طالبِ جامعةٍ في قِسمِ الرياضيّاتِ، وسببُ هذا هو الإِلفُ والعادةُ، فمَنِ اعتادَ أمراً وألِفَهُ أصبحَ حضورُهُ في ذهنِه أسرعَ وأوضحَ مـمّنْ لم يألفْهُ.

وهذا صادقٌ تـماماً على ما نـحنُ فيه الآنَ...

ففي العصورِ المتأخِّرةِ انشغَلَ أغلبُ النّاسِ بأمورِ معاشِهم، ولم يَعُدْ يـجدُ الإنسانُ وَقتاً ليبحثَ ويتفقَّهَ في دينِه، فَرَضيَ أغلبُ النّاسِ بالتّقليدِ ولم يجدوا في هذا حَرَجاً، ومن أشكلَ عليه شيءٌ في أمرِ دينِهِ يبحثُ عن أسهلِ طريقٍ وأسرعِه، سواءٌ البحثُ في الانترنتِ، أو سؤالُ أقربِ «شيخٍ» منه...

ولـهذا أصبحَ الـخوضُ في هذه الموضوعاتِ الآنَ غيرَ مألوفٍ للأغلبِ فيستصعبُها، في حينِ أنّها كانتْ قديـماً ـ بالقدرِ الذي بـحثْناهُ أمسِ ـ معلومةً حتّـى للعوامِ، بل كان كلامُ كثيرٍ من العوامِ أعمقَ مـمّا تكلّمْنا به؛ وذلك بسبب كثرةِ خِلطتِهم بالعلماءِ، وإلفِهم لكلامِهم.

فعدمُ وضوحِ فكرةٍ عندَنا لا يلزمُ منه أنّها في نفسِها غيرُ واضحةٍ.

ثانياً: عندما يريدُ الإنسانُ أن يتفكّرَ في أمرٍ ليس واضحاً بالنّسبةِ له، فإنه يلجأُ أولاً إلى الاستعانةِ بأقربِ مثالٍ معروفٍ عندَه يُعينُهُ في معرفةِ هذا الأمرِ غيرِ الواضحِ...

فمثلاً لو حدثتُكَ عن نوعٍ من الحلوى لم تعرفْه من قبلُ، سيتبادرُ إلى ذهنِك أقربُ نوعِ حلوى تعرفُه من هذه الحلوى...

وأيضاً لو تكلّمْنا عن شمسٍ لأحدِ المجرّاتِ في هذا الكونِ ستقفزُ صورةُ شمسِنا التي نعرفُها إلى الذهنِ حيثُ إنّها المثالُ القريبُ...

وهكذا ستجدُ حضورَ المثالِ لا إرادياً عندَكَ كلّما هممتَ بالتفكيرِ في أمرٍ ما.

ولكنْ...

ما هو المثالُ الحاضرُ في ذهنِك عن الإله؟

ستجدُكَ عاجزاً عن الاستعانةِ بمثالٍ للتّقريبِ؛ لأنّهُ لا مثالَ للإلهِ الخالقِ، بل لو حصلَ في ذهنِك مثالٌ فاعلمْ أنَّ الذي تتفكّرُ فيه ليسَ إلهاً، لأنَّ المثالَ سيكونُ أحدَ الموجوداتِ التي مرَّتْ عليكَ، وما مِنْ موجودٍ مرَّ عليكَ إلا وهو جزءٌ من العالمِ المخلوقِ، ونحنُ نبحثُ في الخالقِ، وهذا ما عُبِّرَ عنه بالقول: «كلُّ ما خطرَ ببالِك فاللهُ بخلافِ ذلكَ».

فأنتَ يا بُنيّ إذنْ تبحثُ في غيبٍ مُطلقٍ ليس له مثالٌ ولا شبيهٌ، فطلَبُهُ عسيرٌ على النفسِ التي تـميلُ بطبعِها إلى الرّاحةِ باستحضارِ المثالِ القريبِ الذي يُسهِّلُ المعرفةَ، ولذا وُجِدَ من البشرِ مَنِ ارتَضى في حقِّ اللهِ أنْ يُشبّهَهُ بالأجسامِ.

فتذكّرْ دائماً: اللهُ غيبٌ مطلقٌ، ولكنّهُ معقولٌ، أي يـمكنُ للعقولِ إدراكُ وجودِه وبعضِ صفاتِهِ...

اللهُ معقولٌ وليسَ مـحسوساً.

ـ نعم، معَكم حقٌّ.

والآنَ بعدَ إذنِكُم، تكلّمْنا في اللقاءِ الماضي عن حاجةِ العالَمِ بـما فيه إلى مـُخصِّصٍ مُرجِّحٍ، فمَنْ هو هذا المرجِّحُ؟

ـ حسناً...

هذا العالَمُ وجودٌ مـمكنٌ، وبالتالي يـحتاجُ إلى مرجِّحٍ، فلْننظرْ في الاحتمالاتِ لـهذا المرجّحِ، ونـختبرْها واحداً واحداً، لنحكمَ بعدَ ذلكَ ما هو الاحتمالُ العقليُّ الوحيدُ الذي يصحُّ أن يكونَ هو المرجِّحُ للعالمِ.

المرجِّحُ لا يـخلو عن أن يكونَ:

١ ـ العالمُ رجَّحَ نفسَه بنفسِه

٢ ـ المرجّحُ هو شيءٌ غيرُ العالمِ

وقد بيّنّا فيما سبقَ أنّه لا يـجوزُ منطقيّاً أن يكونَ العالَمُ رجّحَ نفسَه بنفسِه؛ لأنّهُ مـمكنٌ، ومن حقيقةِ الممكنِ أنّه يـحتاجُ إلى المرجِّحِ، فكيفَ يكونُ المحتاجُ إلى المرجِّحِ هو المرجِّحَ؟! فبقيَ أن يكونَ هو شيئاً غيرَ العالَم، وهذا أيضاً فيه احتمالانِ:

١ ـ إمّا أن يكونَ هذا المرجّحُ مـمكنَ الوجودِ

٢ ـ أو أن يكونَ وجودُه ضروريّاً واجباً

ومـا قلْناهُ في اسـتحالةِ أن يكـونَ العالَمُ الممكنُ قد رجّحَ نفسَـه بنفسِـه، سـينطبقُ كذلكَ علـى المرجّـحِ الممكنِ الذي هو غيـر العالم؛ لأنّـهُ هو أيضاً سـيحتاجُ إلى من يرحّجُهُ...

ثمَّ إن كانَ العالَمُ له مرجِّحٌ غيرُه فهذا يلزمُ عنه أن يكونَ هذا المرجِّحُ سابقاً عليه في الوجودِ، فكيفَ سيختارُ إيـجادَ العالَمِ إن وُجِدَ بعدَه أو معَه؟!

كمَن يريدُ بناءَ بيتٍ، لا بدَّ وأن يكونَ وجودُه سابقاً على وجودِ البيتِ حتّـى يصحَّ أن يقعَ منه فعلُ البناءِ!

والوجودُ الممكنُ قد افتُتِحَ بالعالَمِ فليسَ ثـمَّـةَ مـمكنٌ قبلَه، فالذي يسبقُ العالَمَ هو الإلهُ عند المُتديّنِينَ، والعدمُ المحضُ عندَ الملحدينَ، وكلٌّ منهما ليسَ من جنسِ الممكناتِ الموجودةِ.

أما كونُ الإلهِ ليسَ موجوداً مـمكناً فلِما نُبيّنُه بعدَ قليلٍ.

وأما العدمُ فلأنّهُ «اللاوجودُ» فكيفَ يكونُ اللاوجودُ موجوداً ممكناً؟!

ـ لكن اسمحْ لي يا سيّدي...

راودَني سؤالُ البارحةَ عن معلومةٍ كنتُ قد قرأتُها سابقاً تتعلّقُ بنشأةِ العالَمِ، حيثُ إنَّ العالَمَ نشأَ عن الإنفجارِ العظيمِ، وهذا الإنفجار كانَ بسببِ قوةِ الجاذبيّةِ، وأظنُّ أنَّ الجاذبيةَ هي من الممكناتِ، لذلكَ يمكنُ علميّاً جعلُ المرجّحِ للعالَمِ أحدَ الممكناتِ، فهل هذا الكلامُ صحيحٌ؟

ـ سأوضّحُ لكَ الجوابَ من خلالِ مثالٍ يُحاكي مثالَكَ:

أنت ممكنٌ، تحتاجُ إلى مرجّحٍ يوجِدُك، فهل يجوزُ أن تكونَ يدُك هي التي رجّحتْ وجودَكَ؟

ـ طبعاً لا! كيفَ تكونُ يدي سببَ وجودي وهي جزءٌ منّي، ووجودُها مِن وجودي؟

ـ وهذا أيضاً يُقالُ في مثالِك؛ فالجاذبيّةُ هي جزءٌ من العالَمِ، ولا جاذبيّةَ بدونِ عالَمٍ، فيكونُ حاصلُ الأمرِ كالتّالي:

١ ـ الجاذبيّةُ وُجِدتْ بالعالَمِ

٢ ـ لكنَّ العالَمَ وُجِدَ بالجاذبيّةِ

فتكونُ الجاذبيّةُ موجودةً بعدَ العالَمِ لأنّها جزءٌ منه، وفي نفسِ الوقتِ

وُجدَتْ قبلَه لأنّها السببُ في وجودِه، والتناقضُ هنا ظاهرٌ، وهذا التناقضُ يُسمَّى «الدّورَ».

ـ فعلاً الأمرُ هنا يا سيّدي واضحُ الاستحالةِ.

وأيضاً هناكَ سؤالٌ آخرُ يُلِّحُ عليّ وأرجو أن لا يُغضِبَكَ...

ـ تفضَّلْ اسألْ.

ـ إذا كانَ الأمرُ استحالتُه ظاهرةٌ بـهذه البساطةِ التي يدركُها شخصٌ مثلي غيرُ متخصّصٍ، كيفَ تـخفى عن علماءِ فيزياءٍ كبارٍ جداً قالوا بـها؟!

ـ أحسنتَ في السّؤالِ...

الأمرُ في ظاهرِه يبدو عويصاً، ويُشكلُ على كثيرين، بل رأيتُ مَنْ كانَ هذا السّؤالُ تـحديداً سبباً في تشكّكِهم بالدّينِ، إذ كيفَ يكونُ الدّينُ منطقيّاً ومع هذا يَغفُلُ عنه بعضُ عباقرةِ العالَمِ؟!

كيفَ أثقُ بـحقيقةٍ وصلَ إليها درويشٌ معتكِفٌ في مسجدِه، ولم يصلْ إليها رجلٌ مثلُ «ستيفن هوكينغ» مثلاً في مَعمَلِه؟!

ـ نعم، تـماماً... هذا ما يُشكلُ عليَّ يا سيّدي.

ـ بدايةً دعنـي أسألْك السّؤالَ بطريقةٍ معاكسةٍ:

لو رأيتَ عالِمَ ذرةٍ كبيراً جداً، حاصلاً على جائزةِ نوبل، وكانَ يَدينُ بدينٍ

يُقدِّسُ البقرةَ، ويتقرّبُ إليها بالعبادةِ، فهل كونُه عالمَ ذرةٍ كبيراً يـجعلُ عبادةَ البقرةِ عقلانيّةً؟!

ـ أكيدٌ لا، فالبقرةُ تبقى بقرةٌ ولا يـمكنُ أن تصبحَ معبودةً.

ـ جيدٌ، ولو رأيتَ فيزيائيّاً عظيماً ينكرُ وجودَ الله لأنّه ليسَ مـحسوساً، فهل برأيكَ إنكارُه عقلانيٌّ؟!

ـ لا أظنُّ هذا؛ لأنَّ الإلهَ ـ سواءٌ أثبتْنا وجودَهُ أم لا ـ مفهومُه متعالٍ على الحواسِّ، وهو أمرٌ غيبيٌّ ميتافيزيقيٌّ، فكيفَ نطلبُهُ حسيّاً؟!

ـ تـماماً، ها أنتَ قد وضعتَ يدكَ على مفتاحِ الـجوابِ لسؤالِكَ، البحثُ العقلانيُّ هو أن تبحثَ في كلِّ علمٍ بالأدواتِ التي تتناسبُ وموضوعَ هذا العلمِ.

فمن يبحثُ مثلاً المسائلَ البيولوجيّةَ أو الفيزيائيّةَ بـحثاً ميتافيزيقيّاً فبحْثُهُ ليس عقلانيّاً؛ لأنّه بـحَثَ الموضوعَ الحسيَّ التجريبيَّ بـحثاً ميتافيزيقيّاً.

وفي المقابلِ من يبحثُ القضايا الغيبيّةَ الفلسفيّةَ، والعقديّةَ الإلـهيّةَ بـحـثاً حسيّاً تجريبيّاً فبحثُه ليس عقلانيّاً وإن كانَ عالماً كبيراً في تـخصّصه؛ لأنّه بـحَثَه في موضوعٍ بغيرِ أداتِهِ الصّحيحةِ.

والبحثُ المتعلِّقُ بالإيـمانِ باللهِ ليسَ غيباً مـحضاً، وليس أيضاً تـجريبيّاً مـحضاً ولذلكَ كانَ بحثاً عقلانيّاً، حيثُ إنّه في جانبٍ منهُ معتمِدٌ على التفكّرِ

في الـجانبِ الحسيِّ من العالمِ، وذلكَ بالنّظرِ فيه من حيثُ تبدُّلُه وتغيّرُه، وأيضاً في جانبٍ منه هو بـحثٌ فلسفيٌّ منطقيٌّ قائمٌ على مفاهيمَ مجرَّدةٍ عن المـحسوساتِ، كمفهومِ الوجوبِ والإمكانِ اللذَينِ ليسا مـمّا يُشَاهدُ ويُـجرَّبُ، وإنّما يُتعَقَّلُ.

فهذا البحثُ يا بنيّ لا بدَّ معَه من التّوسطِ، وردِّ كلِّ قسمٍ إلى أدواتِه الـخاصّةِ بهِ، لأنّهُ بـحثٌ مركَّبٌ كما قلنا وليس بسيطاً، فما دُمتَ تبحثُ الـجانبَ الحسيَّ بأدواتِه الـخاصّةِ به، والجانبَ الفلسفيَّ المنطقيَّ بأدواتِه الـخاصّةِ به فكنْ مُطمئِناً، ولا تلتفتْ إلى اسمِ مَن يـخالفُكَ أو يوافقُكَ، وإنّما انظرْ إلى منهجِهِ في البحثِ، فحتّى من وافقَك في النّتيجةِ النّهائيّةِ مستخدِماً منهجاً غيرَ صحيحٍ هو في الحقيقةِ لم يوافقْكَ، وإن كانَ ظاهراً وصلَ إلى نفسِ نتيجتِكَ؛ لأنَّ وصولَه إلى نتيجةٍ صحيحةٍ من خلالِ منهجٍ فاسدٍ هو مـجرّدُ تصادفٍ وليس بـحثاً علميّاً موضوعيّاً.

ـ شكراً لك يا سيّدي على هذه الإجابةِ الشافيةِ.

ـ العفو...

بقيَ أن نُكملَ ما بدأْنا به:

قلنا: مرجِّحُ العالمِ لا يكونُ إلا واجباً.

هذه هي الحقيقةُ العُظمى:

العالَمُ لا بدَّ له من مرجِّحٍ، وهذا المرجِّحُ وجودُه واجبٌ، أي هو «واجبُ الوجودِ».

وكلُّ ما يتعلّقُ بالبحثِ في الـخالقِ سيدورُ على هذه الحقيقةِ:

«الـخالقُ لا يكونُ خالقاً إلا إنْ كانَ واجبَ الوجودِ».

عليكَ أن تستحضرَها على الدوامِ في بحثِك، وكلّما التبسَ عليكَ أمرٌ في الإلـهيّاتِ تذكّرْها.

ـ شكراً لكم يا سيّدي، نـحنُ وصلْنا إلى أنَّ مرجّحَ العالمِ واجبُ الوجودِ، لكنْ من أين حكَمْنا بأنّهُ «اللهُ»؟

ـ سأحاولُ اختصارَ الـجوابِ بقدرِ الإمكانِ قبلَ أن يدركَنا الوقتُ ويؤذِّنَ المؤذِّنُ:

نحن ننظرُ في العالَمِ من جهتين:

الأولى أنّه ممكنٌ لا بدَّ له من مرجِّحٍ

والثانيةُ أنَّ المرجِّحَ له يـجبُ أن يكونَ مغايراً، أي واجباً وليس مـمكناً.

لاحظْ هنا قولَنا: «مـمكنٌ لا بدَّ له من مرجِّحٍ»، هذه الـجملةُ ترادفُ كلمةَ «**مـخلوقٍ**»، حيثُ إنَّ كلَّ مخلوقٍ كان عدماً ثمَّ «خُلِقَ» أيْ: وُجِدَ، فالمخلوقُ يقبلُ الوجودَ والعدمَ، ولا بدَّ له في كلٍّ منهما إلى مرجِّحٍ، وهذا عينُ قولِنا: ممكنٌ لا بدَّ له من مرجِّحٍ.

وأيضاً قولُنا: «مرجِّحُ العالمِ» تُرادِفُ قولَنا: «**خالقٌ**»؛ إذ المرجِّحُ للممكنِ هو الذي يـختارُ وجودَه على عدمِه أو العكسَ، ولا نعني بالـخالقِ إلا هذا: «الموجِدَ والمـُعدِمَ».

إذنْ ثمَّةَ خالقٌ ومـخلوقٌ، خالقٌ واجبٌ، ومـخلوقٌ مـمكنٌ.

فالبحثُ في الإلهِ هو في الحقيقةِ بـحثٌ في الخالقِ، أي عليكَ أن لا تغفُلَ عن كونِهِ موجِداً وخالقاً للعالَمِ، وهذا هو البحثُ المفيدُ لكَ في هذا المقامِ؛ لأنّهُ هو الـجانبُ الذي يـمكنُ أن تـجزمَ به من الحقيقةِ، فلا يـمكنُ أن تدرَكَ كُنهَ الإلهِ، لكنْ تستطيعُ أن تدرَكَ يقيناً أنَّ ثـمـَّةَ خالقاً للعالمِ وهو المرجِّحُ الواجبُ للعالمِ الممكنِ، وبعدَ ذلكَ تنظرُ فيما يـجبُ أن يتَّصِفَ به الـخالقُ من صفاتٍ لا يكونُ خالقاً ما لم يتّصفْ بـها.

فهذا هو الإلهُ الحقُّ الذي تـجبُ عبادتُهُ...

«واجبُ الوجود» المتّصفُ بصفاتِ الـخالقِ.

وقد بيّنا القسمَ الأولَ وهو كَونُهُ واجبَ الوجودِ، وبقيَ البحثُ في صفاتِه من حيثُ هو الخالقُ...

وهذا ما سنتكلّمُ به غداً إن شاءَ اللهُ.



(١٢)

جلستُ تلكَ الليلةَ مـحاولاً التفكّرَ فيما يـجبُ أن يتّصفَ به الـخالقُ من صفاتٍ، دونَ أن أقفزَ منطقيّاً على ما لم أتأكّدْ منه.

فأنا الآنَ أعرفُ أنَّ العالَمَ الممكنَ له مرجِّحٌ واجبٌ، ولكنْ لم أصلْ بعدُ منطقيّاً أنّه «اللهُ»...

هل يجبُ مثلاً أن يكونَ الخالقُ «قويّاً»؟

هل يجبُ أن يكونَ «عالِماً» بكلِّ شيءٍ؟

هل يجبُ أن يكونَ «رحيماً»؟

ـ حسناً، إذا أدرتُ تـخمينَ الأسئلةِ هكذا فلن تنتهيَ هذه الليلةُ...

فلأحاولَ الوصولَ إلى أقربِ مثالٍ كما قالَ الشيخُ، فهذا ربّما يُسهِّلُ عليّ عمليّةَ التفكيرِ المُعقَّدةِ هذِهِ.

فلو فرضتُ أنّي سأبنـي بيتاً، ماذا أحتاجُ من صفاتٍ حتى يتحقّقَ لي هذا المرادُ؟

سأحتاجُ إلى موادِّ البناءِ...

وإلى أرضٍ أبنـي عليها السكنَ...

وإلى تصميمٍ هندسيٍّ لشكلِ البيتِ...

وعُمّالٍ يُعاونون في البناءِ...

هل يحتاجُ الـخالقُ لشيءٍ من هذه ليخلقَ؟

إذا كان سيخلقُ من عدمٍ إذنْ لنْ يكونَ ثـمّةَ أرضٌ ولا موادٌّ؛ لأنَّ ما سواهُ قبلَ الـخلقِ عدمٌ...

وأيضاً الخالقُ لن يحتاجَ إلى مساعدةٍ في الخلقِ؛ لأنّه لو احتاجّ إلى غيرِه فهو عاجز ممكنٌ وليسَ واجباً...

ولكن أظنُّ أنّه يـجبُ أن يتصّفَ بأنّه عالِمٌ بـما يريدُ أن يـخلقَه، فلا يـمكنني أن أتصوّرَ صانعاً ليس عالِماً بـما يصنَعُهُ!

إذنْ الـخالقُ «عالِمٌ»...

أظنُّها الصّفةَ التي تجب للخالقِ، بحيثُ لا يكونُ خالِقاً مالم يتصّفْ بها.

لكن هل «العلمُ» كافٍ للخلقِ؟

قطعاً لا، يـجبُ أن يكونَ عندَهُ «قدرةٌ» على خلقِ ما يعلمُهُ...

نعم أظنُّ هذا هو أفضلَ وَصفٍ: «القدرةُ على خلْقِ ما يعلمُهُ»...

أظنُّ أنَّ ما وصلتُ إليه وإن لم يكن تامّاً، إلا أنّه كافٍ بـحسبِ ما أرى لتكوينِ فكرتي عن الـخالقِ...

هو «القادر العالِم».

(١٣)

ما أنِ انتهتِ الصّلاةُ حتى تلَفّتَ الشّيخُ يـَمنةً ويَسرةً، كنتُ خلفَهُ مباشرةً، فلم يلاحظْني أولَّ الأمرِ، وظننتُ أنّه يبحثُ عن أحدٍ، ثمَّ أخذَ يتلفتُ مرةً ثانيةً، وهذه المرّةُ نظرَ خلفَهُ فرآني.

رأيتُ هذه المرّةَ ابتسامةً مـختلفةً...

ابتسامةَ مَن وجَدَ شيئاً عزيزاً...

وقد تعجبّتُ في أولِ الأمرِ لـِمَا رأيتُهُ من شَغَفِ الشّيخِ اليومَ في حواري، ولم أخجلْ من سؤالِهِ عن تلكَ النظرةِ وهذا الشَّغَفِ عندما دخلْنا المكتبةَ، فأجابني:

ـ حسناً يا بـنيّ: فـي أولِ الأمرِ أتردّدُ دائماً فـي الإقبالِ على من يأتي ليتباحثَ معي في شبهةٍ أو إشكالٍ عويصٍ يؤرّقُهُ في أمرِ العقيدةِ؛ ذلكَ لأنّي أرى الأغلبَ إنّما يأتون لسماعِ إجابةٍ محدّدةٍ ثمَّ ينصرفون دونَ تحريرٍ وتدقيقٍ للجوابِ، وهذا ما يُفقِدني لذّةَ البحثِ والسّؤالِ والـجوابِ...

إنَّ مَن أدركَ يا بنيّ ما لطلبِ العلمِ وتعليمِه من لذّةٍ لم يصعُبْ عليه في سبيله شيءٌ ألبتةَ.

إنَّ الشَّغَفَ بالعلمِ والتعليمِ يـجعلُكَ تلامسُ عَنانَ السّماءِ...

بل يـجعلُكَ تشمُّ رائحةَ الـجنةِ وأنتَ في الدُّنيا...

وقد جرتْ عادتي مع السّائِلينَ أن أمهلَهم ثلاثةَ لقاءاتٍ، فمَن صبرَ وحضرَ مـجلساً، وثنّاهُ بثانٍ، ثمَّ ثلَّثَ بالثّالث فهو طالبٌ للعلمِ حقّاً ويريدُ اليقينَ دونَ التقليدِ، أمّا منِ اكتفى بـمجلسٍ أو اثنينِ فهو على الأغلبِ غيرُ طالبٍ إلا إلى جوابٍ يقلّدُهُ.

وها أنتَ يا بنيّ قد وصلتَ لمجلسِك الثالثِ.

ـ الحمدُ للهِ، وأنا حقّاً أبـحثُ عن الحقيقةِ يا سيّدي، وأنا مَن ينبغي أن يتعطَّشَ لحوارِكَ لا العكسُ.

ـ العلمُ يُنالُ بطريقَين لا غنىً عنهما:

أوَّلـهما: البحثُ والمطالعةُ وتـحريرُ المسائلِ وتقريرِها.

والثّاني: هو الحوارُ والسّؤالُ والمناظرةُ.

في الطّريقِ الأولِ الطالبُ تابعٌ للأستاذِ، ويـجبُ عليه ذلكَ، خصوصاً في أولِ الأمرِ، حيثُ لا يـملكُ مهارةَ البحثِ والمطالعةِ الصّحيحةِ.

أما الطريقُ الثّانيُ فالمنفعةُ فيه مُتبادَلةٌ، فسؤالُ الطالبِ مفيدٌ له، وكذلك مفيدٌ للأستاذِ؛ حيثُ فيه تدريبٌ على القدرةِ على تـحريرِ الـجوابِ وتقريرِهِ،

وأيضاً يفتحُ ذهنَهُ لـجانبٍ جديدٍ في المسألةِ ربـّما لم يكنْ قدِ انتبهَ له؛ فالأستاذُ فهمَ المسألةَ سابقاً، وعرفَ ما الذي قد يُسألُ عنه فيها، فيأتيه سؤالٌ من جهةٍ لم يكنْ يتصوّرُ أنّها قد تُشكِلُ على أحدٍ، فينتبهُ لذلكَ في المستقبلِ ويبسُطُ في الـجوابِ ما لم يكنْ ليبسطَهُ لولا ذلكَ.

قد أطلْنا الكلامَ وأخشى أن يدركَنا الوقتُ، فلنرجعْ إلى ما كُنّا توقفْنا عندَه...

هاتِ ما عندَكَ فلا بدَّ أنّكَ فكّرتَ البارحةَ كثيراً.

ـ نحن وصلْنا يا سيّدي إلى أنَّ البحثَ في واجبِ الوجودِ إنّما هو بحثٌ من جهةِ كونِه خالقاً للعالَمِ، فيجبُ أن يتّصفَ بما لا يُتصوَّرُ الخالقُ خالقاً إلا بهِ.

وقد فكّرتُ البارحةَ في هذه الصّفاتِ فوجدتُ الـخالقَ يجبُ أن يكونَ قادراً عالماً، فهل هذا صحيحٌ؟

ـ جيدٌ، فقد أصبتَ طرَفاً لا بأسَ به من الحقيقةِ، ولكنّ الأمرَ يحتاجُ مزيدَ تفصيلٍ:

الخلقُ هو «الإيـجادُ من العدمِ» أو بعبارةٍ أكثرَ دقةً: «إيـجادُ الممكنِ من العدمِ»، «فلنحللْ» هذه الجملةَ لنرى ما تـحويه من قضايا، ثم «نُركِّبْ» ما حلّلْناه لنصلَ بعدَ ذلكَ إلى تصوّرٍ منطقيٍّ للخالقِ...

أوضحُ الأوصافِ الواجبةِ للخالقِ هي «القدرةُ»؛ إذ القدرةُ هي الصّفةُ التي يَتأتّى بـها الإيـجادُ من العدمِ، فكل ما وُجِدَ من عدمٍ لا بدَّ وأنّ قدرةً أوجدتْهُ، ولولاها لبقيَ عدماً.

وهي أوضحُ الصّفاتِ لأنّنا ندركُ قطعاً أنَّ الفعلَ لا يصدرُ من أحدٍ إلا إن كانَ قادراً عليه، وبمجردِ أن ترَ فعلاً ما ستدركُ مباشرةً أنَّ صاحبَ الفعلِ قادرٌ على فعلِه...

فمثلاً بـمجردِ أنْ تراني أكتبُ على السّبورةِ باللّغةِ الإنـجليزيّةِ، ستدركُ حتماً أنَّ هذا الفعلَ لم يكنْ ليصدرَ منّـي لولا أنّي قادرٌ عليه. وفي المقابلِ لو كنتُ غيرَ قادرٍ عليه لـَمَا صدرَ منّـي.

وكذا هذا العالَـمُ، لو كانَ الـخالقُ عاجزاً عن خلْقِهِ لما وُجِدَ العالَمُ، لكنَّ العالمَ موجودٌ، فلا بدَّ أن يكونَ خالقُهُ قادراً.

فالقدرةُ إذنْ هي التي تُوجِدُ الممكنَ، لكنْ هل جميعُ الممكناتِ موجودةٌ؟

ـ لم أفهمْ سؤالَكُم يا سيّدي؟

ـ مثلاً لو فكّرْنـا معاً ما هـي الاحتمـالاتُ الممكنـةُ عقلاً التي يـمكن أن يكـونَ عليهـا لونُ شـعرِكَ؟

فأنتَ تعلمُ الآنَ أنَّ لونَ شعرِكَ الأسودَ ليس واجباً عقلياً، ويـمكنُكَ

تصوّرُهُ بُنيّاً، أو أشقرَ أو أحمرَ.... الخ فالاحتمالاتُ الممكنةُ للونِ شعرِكَ هي بعددِ الألوانِ المعروفةِ، أليسَ كذلكَ؟

ـ في الحقيقةِ هذا المثالُ أشكَلَ عَليّ؛ لأنَّ لونَ شعري حدّدتْهُ الـجِيْناتُ الموجودةُ في جسمي، ولن يكونَ إلا هذا اللونَ الذي هو عليه الآنَ؛ لأنَّ الألوانَ الأخرى معناها جِيْناتٌ أخرى.

ـ نعم صحيحٌ؛ فسوادُ شعرِكَ الآنَ لأنَّ جيناتٍ معينةً موجودةٌ فيك، ولو أمكنَ وجودُ جيناتٍ أخرى لتغيّرَ لونُ شعرِكَ، أليس كذلكَ؟

ـ بلى، ولكن لن تكونَ هناكَ جِيْناتٌ أخرى؛ لأنَّ هذه الـجيناتِ أخذْتُها من أبٍ مُـحدَّدٍ وأمٍّ مُـحدَّدةٍ، فلن تتغيّرَ ما دامَ أبي هو أبي وأمّي هي أمّي.

ـ وهل يـجبُ عقلاً أن يكونَ والدَاكَ هما فلانٌ وفلانةٌ تـحديداً؟

ـ لم أفهمْ يا سيّدي!

ـ يعني أنَّ عددَ البشرِ الآنَ حوالي سبعةُ مِليارِ إنسانٍ، فلْنفرِضْ أنَّ نصفَهم ذكورٌ والنصفَ الآخرَ إناثٌ، فاحتمالُ أن يكونَ فلانٌ تـحديداً هو والدَكَ يساوي واحداً على ثلاثةٍ ونصفِ مِليارٍ...

وكذا احتمالُ كونِ فُلانةٍ تـحديداً هي أمُّكَ...

وبالتالي احتمالُ أن تكونَ جِيناتُكَ التي تـحملُها الآنَ هي الموجودةُ تـحديداً هو مـجموعُ كلِّ هذِهِ الاحتمالاتِ.

ـ عجيبٌ!

لم أفكرْ بالأمرِ سابقاً بـهذه الطّريقةِ، إذنْ ما كنتُ أظنُّه احتمالاً وحيداً للونِ شعري مثلاً هو في الحقيقةِ بسببِ نظري السَّطحيِّ في أنَّ أبي هو فلانٌ وأمّي هي فلانةٌ، لكنّهُ في الواقعِ أحدُ ملايين الاحتمالاتِ الممكنةِ عقلاً!

ـ نعم هو ذا، فالـخالقُ الذي أوجدَ بقدرتِه مـمكناً معيّناً من بينِ أعدادٍ لا متناهيةٍ من الاحتمالاتِ الممكنةِ لماذا أوجدَ هذا الممكنَ تـحديداً؟

ـ هل يصحُّ أن نقولَ لأنّه «اختارَهُ» دونَ غيرِه؟

ـ نعم طبعاً، اختارَ إيـجادَهُ.

والآنَ حاوِلْ أن تُدقّقَ النظرَ في هذه الجملةِ: «الـخالقُ اختارَ إيـجادَهُ».

هل الإيـجادُ هو نفسُهُ الاختيارُ أم هما وَصْفانِ متغايرانِ؟

ـ أظنُّ أنَّ الاختيارَ يكونُ قبلَ الإيـجادِ، فيختارُ أولاً ما سيوجدُ، ثـمَّ يوجِدُهُ أليسَ كذلكَ؟

ـ بلى، الاختيارُ هو صفةُ «الإرادةَ»، وهي التي ترجّحُ احتمالاً معيّناً من بين احتمالاتٍ لا نـهايةَ لـها، بحيثُ تُوجِدُ «القدرةُ» ما اختارتْهُ الإرادةُ.

ـ إذنْ الـخالقُ يـجبُ أن يكونَ مُريداً وقادراً.

ـ نعم، الخالقُ يـَخلُقُ «بقدرتِهِ» ما اختارتْهُ «إرادتُهُ»...

ولكنْ هل يصحُّ اختيارُ المجهولِ؟

ـ عذراً يا سيّدي، أظنُّ أنَّ البحثَ أصبحَ أكثرَ تركيباً وتعقيداً! ماذا تقصدُ باختيارِ المجهولِ؟

سأُبسّطُ بـمثالٍ قريبٍ يُوضِّحُ المقصودَ، ثم ننتقلُ منه إلى القضيّةِ الأصليّةِ:

لو قلتُ: كُلْ صباحاً الطعامَ «س»، فماذا ستختارُ لتنفّذَ أمري؟

ـ كيف سأُنفّذُ أمرَكَ وهو غيرُ مفهومٍ بالنّسبةِ لي؟! فأنا لا أعرفُ ما الذي تعنيه بـ «س».

ـ تـماماً، فالإرادةُ تـختارُ ما عُلِمَ، أمّا ما كان مـجهولاً فلن تتوجّهَ الإرادةُ لطلبِهِ، فالإرادةُ تـختارُ حصولَ أمرٍ «معيَّنٍ»، متميّزٍ عن غيرِه من الأمورِ، فما كانَ غيرَ حاضرٍ ومعلومٍ كيفَ يُطلَبُ!

ـ اسمحْ لي يا سيّدي بـمثالٍ أتأكّدُ به أنّي فهمتُ: لو قلتَ لي غداً عندَكَ امتحانٌ في الـجامعةِ، دونَ أن تـخبرَني مادةَ الامتحانِ، فلن أتـمكّنَ من اختيارِ فعلِ الدّراسةِ لأنّي لا أعلمُ ماذا سأدرسُ تـحديداً، صحيحٌ؟

ـ ربّما يكونُ مثالُك قريباً من الصواب، إلا أنّه يحتاج مزيد تدقيق؛ لأنّي لو قلتُ لكَ:

«عندَكَ امتحانٌ في الجامعةِ».

ستكونُ الاحتمالاتُ مـحدودةً بعددِ الموادِّ التي تَدْرسُها الآنَ، فإنّي وإن كنتُ لم أُعَيِّنْ مادةً بعينِها إلا أنّه يـمكنُكَ أن تدرسَ جميعَ موادِّكَ، وهكذا سيتحققُ الفعلُ منك.

ولكـن لـو كانَ الأمرُ له احتمالاتٌ لا نـهايةَ لـها، فكيفَ ستختارُ الأمرَ المرادَ بعينه دونَ سـواهُ؟!

وانقلْ هذا الكلامَ إلى الـخالقِ القادرِ المريدِ، كيفَ أرادَ خلقَ العالمِ باحتمالاتٍ معيَّنةٍ من جملةِ احتمالاتٍ لا نـهايةَ لـها؟!

فالعالَمُ يـمكنُ أن يكونَ أكبرَ مـمّا هو عليهِ، أو أصغرَ، وفي كلٍّ منهما مقدارُ الكِبَرِ والصِّغَرِ له احتمالاتٌ لا نـهايةَ لـها، وقِسْ على ذلكَ كلَّ وصفٍ في هذا العالَمِ فإنّهُ سيقبلُ هذه الاحتمالاتِ المتكثّرةَ.

فلا تصحُّ إرادةُ الـخالقِ وجودَ العالَمِ بـهذه الأوصافِ المخصوصةِ إلا إن كانَ عالماً بـها، لأنّهُ لو لم يكنْ عالماً بـها كيفَ سيختارُها؟!

ـ فهمتُ يا سيّدي، مُوجِدُ العالَمِ قادرٌ مريدٌ عالِمٌ، هذه الأوصافُ لا يصحُّ عقلاً إلا أن يكونَ موجِدُ العالَمِ متّصفاً بـها.

ـ وهذه الصفاتُ لا توجدُ إلا في «حيٍّ»...

فكلُّ قادرٍ عالِمٍ مريدٍ ينبغي أن يكونَ حيّاً، فالحاصلُ أنَّ العالَمَ له موجِدٌ:

واجبٌ وجودُهُ

خالقٌ

قادرٌ

مريدٌ

عالِمٌ

حيٌّ

فهذا هو اللهُ تعالى يا بُنيّ...

هذا هو الإلهُ الحقُّ...

وكلُّ مَنْ تُنسَبُ له ألوهيّةٌ غيره فلا يتّصفُ بهذه الصّفاتِ على الوجهِ الذي شرحناه.

وهذا ما تعبَّدَنا اللهُ به، ليس أنْ نُردِّدَ بألسنتِنا لفظَةَ «اللهِ» فقط، وإنّما أن نعلمَ ما حوتْهُ هذه الكلمةُ المـُشرّفةُ من صفاتِ الألوهيّةِ.

والآنَ يا بُنيّ فكّرْ فيما وصلْنا إليه في بحثِنا ثمَّ أراكَ غداً إن كانَ عندَكَ سؤالٌ.



(١٤)
هو الله

اللهُ...

هذه الحروفُ الأربعةُ احتاجَتْ منّـي كلَّ هذا الوقتِ لفهمِها.

وربّما مرّتْ حياةُ بعضِ الناسِ كاملةً دونَ تـحصيلِ معناها، فاكتفَوا بترديدِها بلسانـِهم، وتقليدِ ما قِيلَ لـهم في معناها.

اللهُ هو واجبُ الوجودِ

هو القادرُ

المريدُ

العالِـمُ

الحيُّ

هو خالقُ العالَـمِ.

ولكنْ...

إذا كانَ العالَـمُ بكلِّ ما فيه هو خلْقَهُ، فالشّرورُ الموجودةُ في العالمِ هي خَلْقُهُ أيضاً، أيْ أنَّ كلَّ هذا الدّمارِ والقتْلِ والكراهيّةِ الموجودةِ في العالمِ اللهُ

هو الموجدُ له بقدرتِهِ، وهو الذي اختارَه بإرادتِه، وهو عالمٌ به وبنتائجِهِ!

إنَّ النّظرَ بـموضوعيّةٍ إلى حالِ العالمِ اليومَ بـما فيه من حروبٍ وكوارثَ وأوبئةٍ سيؤدّي بنا إلى غلبةِ الظنِّ بأنّ القادمَ للبشريّةِ سيكونُ أكثرَ سوءاً مـمّا مرَّ من مَسيرتـِها؟

فكيفَ يقبلُ الإلهُ الرّحيمُ بوجودِ الشّرِ في العالمِ الذي خلَقَهُ؟!

بل كيفَ يقبلُ أن يتوسّعَ الشّرُّ في العالمِ ويتمدّدَ ويزدادَ وحشيّةً؟!

هـل لـو قلـتُ إنّ اللهَ ليس هو خالقَ الشّـرورِ فـي العالمِ أكونُ قـد حللْتُ الإشكالَ؟!

فاللهُ خالقُ الـخيرِ، وكلُّ ما كانَ شرّاً إنّما هو صنيعةُ غيرِه!

هذا الجوابُ حلَّ جُزْءاً من المشكلةِ، لكنّهُ فتحَ باباً جديداً من الإشكالاتِ؛ فهو حلٌّ لإشكالِ أنَّ اللهَ الرّحيمَ لن يـخلقَ الشّرَّ في العالمِ، ولكنّهُ في المقابلِ جعلَ إشكالاً أكبرَ حاضراً، وهو كيفَ يكونُ هناكَ خالقٌ غيرُه؟!

بل الشّرُّ في العالمِ ـ بـحسبِ ما أرى ـ أكثرُ من الـخيرِ، فغيرُهُ سيخلقُ أكثرَ من خلْقِهِ؟!

عجيبٌ هذا البحثُ، يبدو أنه ليس له قرارٌ...

كلّما ظننتُ أنّني انتهيتُ منه فتحَ باباً جديداً للسّؤالِ!

ولكنّ الفرقَ بالنّسبةِ لي الآنَ أنّي مطمئِنٌّ أنّ هذه التّساؤلاتِ هي طريقي للإيـمانِ...

ففي حينِ كانتْ تُقْلقُني وتعكّرُ عليّ الليالِيَ مثلُ هذه التّساؤلاتِ في السّابقِ؛ لأنّي كنتُ أعتقدُ دائماً أنّها أسئلةٌ مـُحرَّمةٌ، وأنّها مُـجرَّدُ وساوسَ شيطانيّةٍ، وبـما أنّها تـخطرُ في بالي إذنْ أنا شخصٌ سيّئٌ يُسيطِرُ عليه الشّيطانُ...

لكنّي الآنَ أعلمُ أنَّ هذه التّساؤلاتِ يـمكنُ أنْ تـخطُرَ في بالِ أيِّ أحدٍ، وبـما أنّني أجدُ العالِمَ الذي أطرحُ عليه هذه الأسئلةَ، وأتناقشُ معَه فيها فلا داعيَ للقلقِ، بل إنّها كما ذكرَ الشّيخُ ستكونُ الطّريقَ لتركِ التّقليدِ، والتّحقّقَ بالإيـمانِ.



(١٥)

معضلة الشر

بـمجردِ دخولِنا المكانَ الذي أصبحَ معتاداً بالنّسبةِ لي، وبـمجردِ تـمكّنِ الشّيخِ في جلوسِهِ، بادَرْتُهُ بالسّؤالِ:

ـ هـل يصحُّ أن يكونَ اللهُ تعالى هو خالقَ كلِّ هذه الشّرورِ التي نراها ونسمعُ عنها صباحَ مساءَ في العالمِ؟!

ابتسمَ الشّيخُ طويلاً...

لا أدري هل بسببِ تعجّلي في طرحِ السّؤالِ، أو ربـّما بسببِ توقّعِهِ هذا السّؤالَ منـّي؟

بعدَ أنْ أخذَ في ابتسامتِهِ تلكَ كاملَ وقتِه بدأَ جِدّتَهِ المُعتادةَ عندَ بدايةِ الحديثِ...

ـ اعلمْ أن هذا السّؤالَ يا بنّي قد ظهرَ مبكراً جداً في مسيرةِ البشريّةِ، وقد اختلفتِ الأديانُ في تصوّرِها للشّرِّ ولأسبابِه اختلافاتٍ تصلُ حدَّ التناقضِ...

بعضُ الأديانِ قد فسّرتِ الشّرَّ بوجودِ إلهٍ قديـمٍ خاصٍّ بالشّرِّ، هو الذي يـخلُقُهُ ويوجِدُهُ كما هو الحالُ في كثيرٍ من دياناتِ الشّرقِ.

وبعضُها يفسّرُ وجودَ الشّرِّ بوجودِ مـخلوقٍ له مهمّةٌ مـحدَّدةٌ وهي غَوايةُ الإنسانِ وحثُّهُ على ارتكابِ الـخَطيئةِ، اُصطُلِحَ على تسميتِهِ «بالشّيطانِ».

وقد يُفسَّرُ وجودُ الشّرِّ بسببِ أنّ الإنسانَ هو الذي يوجِدُهُ بإرادتِه الحرّةِ التي أودعَها اللهُ فيه، والتي بـها يوجِدُ الـخيرَ والشّرَّ معاً.

وربّـما يُعَدُّ الفيلسوفُ الأَثينيُّ أبيقورُ من أوائل مَنِ عدَّ هذهِ المشكلةَ قادحةً في التّصورِ الدّينيِّ لوجودِ الإلهِ في الفلسفةِ اليونانيّةِ القديـمةِ؛ ولا يُعَدُّ هذا غريباً على هذا الفيلسوفِ الذي تقومُ فلسفتُهُ على مفهومَي اللّذةِ والألمِ.

ويـمكنني أنْ ألـخِّصَ لكَ مذهبَه في التّساؤلِ التّالي:

كيفَ يـمكنُ لإلهٍ يُفترَضُ أنّهُ إلهٌ عالمٌ ورحيمٌ وقادرٌ أنْ يقبلَ بوجودِ هذهِ الشّرورِ التي تـملأُ العالمَ؟!

الإجابةُ كما يراها أبيقورُ ستكونُ منحصرةً في احتمالاتٍ أربعةٍ لا خامسَ لـها:

١ ـ إما أنّ الإلهَ يريدُ انتزاعَ الشّرِّ ولا يقدرُ

٢ ـ أو أنّهُ يقدرُ ولا يريدُ

٣ ـ أو أنّهُ لا يقدرُ ولا يريدُ

٤ ـ أو أنّهُ يقدرُ ويريدُ انتزاعَ الشَّرِّ من العالمِ

ـ فإذا كانَ يريدُ انتزاعَ الشَّرِّ ولم يقدرْ فهو عاجزٌ، والعاجزُ ليس إلـهاً.

ـ وإذا كانَ قادراً على نزعِهِ ولم يردْ نزعَهُ فهو شريرٌ، وهذا يتعارضُ مع الفرضِ بأنَّ الإلهَ كاملٌ ولا يُنسَبُ له نقصٌ البتةَ.

ـ وإذا كانَ لا يقـدرُ ولا يريـدُ فهـو عاجـزٌ وشـريرٌ في نفـسِ الوقتِ، ومن كانـتْ أوصافُـهُ كهذا فليـس بإلهٍ.

ـ وإذا كانَ قادراً على نزعِ الشّرِّ، ومريداً لذلك، فمِنْ أين يأتي الشُّرُّ؟!

أو لِمَ لا يلغي الشّرَّ؟!

فاعتبر أبيقورُ أنّ جميعِ تلك الاحتمالاتِ لوجودَ الشّرِّ تتعارض مع وجودِ الإلهِ.

في الواقعِ يـمكننا أنْ ننظرَ في معضلةِ «خلْقِ الشّرِّ» من جهاتٍ مـختلفةٍ، وكلُّها تؤكِّدُ على عدمِ المعارضةِ بين الوجودَينِ، (وجودِ الشّرِّ ووجودِ الإلهِ)...

فمثلاً هل هناكَ حقّاً وجودٌ للشّرِّ المطلقِ في العالمِ؟!

فكلُّ ما تعتقدُهُ شرّاً سيجدُ إنسانٌ آخرُ ـ لا محالةَ ـ في جانبٍ منه خيراً...

فقتْلُ إنسانٍ مثلاً يـُمثِّلُ في نظرِ الكثيرينِ فعلاً شريراً، بل ربـّما من أقبحِ الشّرورِ، لكنْ إذا علمْنا أنّ هذا المقتولَ كان يـحارِبُ ويقتُلُ ويسرِقُ ويغتصِبُ الأبرياءَ فلا شكَّ أنَّ كثيرينَ سيرونَ في قتلِه خيراً كبيراً، وتـخليصاً من الظّلمِ الواقعِ على الضّحايا.

وإذا نظرْنا إلى الحروبِ بينَ البشرِ فإنّ القائلِينَ بوجودِ الشّرِّ المطلَقِ سيعطي فيها حكماً كليّاً ويقولُ: كلُّ الحروبِ شرٌّ.

ولكنّ هذا الحكمَ بكليّتِهِ خاطئٌ لا محالةَ؛ لأنَّ في بعضِ الحروبِ تحريراً للأوطانِ ودِفاعاً عن المُستضعَفِينَ.

وقد يرى بعضُهم المرضَ شرّاً محْضاً، وقد يرى فيه آخرونَ الوسيلةَ الوحيدةَ التي تدفعُ البشرَ أنّ يبحثوا ويخترعوا الأدويةَ النّافعةَ.

وقد أكونُ طبيباً فأتسبّبُ بألمٍ ووجَعٍ لطفلٍ صغيرٍ، وسأتسبّبُ ببكائِهِ ساعاتٍ، ولكنّي فعلتُ ذلكَ لإعطائِهِ تَطْعيماً ضِدَّ الكُوليرا، فهل أنا في هذه الحالةِ التي سبّبتُ فيها هذا الألَمَ لهذا الطّفلِ البريءِ شريرٌ أم خَيِّرٌ؟!

وهكذا مهما تصوّرْنا الشّرَّ المحضَ، عندَ التمحيصِ فيه ستجدُ فيه جوانبَ خيِّرةً يتنبّهُ لها الباحثُ الموضوعيُّ، فالحكمُ بالشّرِّ يكونُ نِسبيّاً، فلا يجبُ أن يُنَصِّبَ الإنسانُ نفسَه مِعياراً لتحديدِ ما هو الخيرُ وما هو الشّرُّ، فنفسُ الفعلِ الذي يُحكَمُ بشرِّهِ من وجهٍ، يُحكَمُ بخيرِهِ من وجهٍ آخرَ.

وهذا هو المسلكُ الأولُ في مسألةِ وجودِ الشر وعدمِ تعارضِهِ معَ وجودِ الإلهِ.

وأمّا المسلكُ الثّاني في هذه المسألةِ هو أنَّ الإلهَ حتَّى يصحَّ وصفُهُ

بالألوهيّةِ ـ كما اتفقْنا سابقاً ـ يـجبُ أن يكونَ فاعلاً مـختاراً، أي: خالقاً متّصفاً بالقدرةِ والإرادةِ.

ولا يكونُ الإلهُ فاعلاً مـختاراً إلا إذا كانَ ذا قدرةٍ وإرادةٍ عامّتَـي التّعلّقِ بـجميعِ الممكناتِ.

وإن لم تكونا كذلكَ فليس بإلهٍ، فالإلهُ له إرادةٌ تتعلّقُ باختيارِ كلِّ مـمكنٍ، والممكنُ مُنقسِمٌ بلا شكٍّ إلى خيرٍ وشرٍّ، وبالتالي فإن إرادةَ الإلهِ مُتعلِّقةٌ بكلٍّ منهما؛ فإذا اختارَ الشّرَّ فلِحكمةٍ، وإذا اختارَ الخيرَ فلِحكمةٍ كذلكَ.

ـ ولكـن يـا سـيدي مالـذي سـيترتّبُ علـى قولِنـا أنَّ الشّـرَّ ليـس مـن مقـدوراتِ اللهِ؟

ـ حاصلُ هذا الكلامِ أنّ قدرةَ الإلهِ وإرادتَه تتعلّقُ ببعضِ الممكناتِ فقط، ولا تستطيعُ التعلّقَ ببعضِها الآخرِ، ومن كانَ هذا وصفَه فهو عاجزٌ، وليس بإلهٍ، فهو مُـجبَرٌ على اختيارٍ واحدٍ فقط وهو الـخيرُ، أو ما يظنُّهُ بعضُ النّاسِ خيراً، لأنّه ـ كما ذكرتُ لكَ سابقاً ـ الـخيرُ والشّرُّ نِسْبيّانِ.

ـ حسنا، أظنني فهمت هذا المسلك يا سيدي، فما هو المسلك الثالث؟

ـ **المَسلكُ الثّالثُ** هو القولُ بأنّ «الشّرَّ ثـمنُ الحريّةِ»...

ويعني أنَّ اللهَ قدْ خلَقَ البشرَ وأوجدَ فيهِمُ الإرادةَ الحرّةَ...

خلَقَهم أحراراً فيما يريدونَ، وفي هذا كمالُ الـخلْقِ؛ فالأكملُ قطعاً أن يـخلُقَ الإلهُ بشراً أحراراً لا أنْ يـخلقَهم يسيرونَ كالرّيشةِ في مَهَبِّ الرّيحَ.

ومن يرى أنّ في وجودِ الشّرِّ منافاةً لوجودِ الإلهِ فهو يريدُ بشراً لا يصدرُ عنهم إلا الخيرُ، أي بشراً مجبورين عليه بحيثُ لا يمكنُ أن تتوجهَ إلى غيرِهِ أنفسُهم ألبتةَ، وإذا توجهتْ إلى غيرِهِ وحاولوا فعلَ الشّرِّ منعَهم الإلهُ ذلكَ...

كأنْ يكونَ الإنسانُ ـ مثلاً ـ كلّما أرادَ أن يتكلمَ بقولٍ كاذبٍ تدخَّلَ الإلهُ فوراً فغيَّرَ الموجاتِ الصّوتيّةَ التي تخرجُ من هذا الإنسانِ بحيثُ يسمعُه السّامعونَ ناطقاً بالصّدقِ...

أو كلّما انطلقَ إنسانٌ ليضربَ آخرَ تدخّلَ الإلهُ ليُحَوّلَ الضربةَ إلى مصافحةٍ...

قطعاً إنّ في الجبرِ منقصةً لقيمةِ الإنسانِ؛ فالحريّةُ أعلى مراتبِ الوجودِ، وقد أعطاها اللهُ لخلقِهِ، فمنهم من استخدمها في الخير، ومنهم من استخدمها في الشّرّ، وفي الحالتين لا تُنقِصانِ من اليقينِ بوجودِ الإلهِ، بل في ذلك تمامُ العدلِ؛ فلو كان البشرُ مجبورينَ على الخيرِ فهم لا يستحقّونَ الجنّةَ، ولكنّهم فعلوا الخيرَ والشّرَّ بإرادتِهم، فاستحقَّ بعضُهم الجنة وبعضُهم النارَ.

يكفينا هذا القدر اليوم يا بني، وأراك غداً إن شاء الله.

(١٦)
لماذا يحتاج الدين إلى علماء؟

إنَّ أكثر ما استوقفني في هذه «الرحلة البحثية» هو أنني تفاجأت حقاً من مدى عمق ودقة البحث في العقيدة...

فالأمر ليس مجرَّد تأملات تتأملها في ساعة صفاء، وليسَ مجرَّد كتب تطالعها فتحفظها، وليسَ رأياً تُبديه وأنت تتبادل أطراف الحديث مع أصدقائك...

إنَّهُ بحثٌ لهُ قواعد وضوابط، فيه مقدمات موصلة إلى نتائج.

لطالما كنت أظن الأمر أبسط من هذا بكثير، ولم أكن أتوقع أنه من الدقة إلى الحد الذي قد يجعل البعض يتقاعس عن تحصيله.

إنه «علم»...

نعم هذا هو أدقُّ وصف للعقيدة...

العقيدة التي تباحثنا فيها علمٌ، وفَهمُها يحتاج إلى «طلب علم».

وربما هذا سينسحب إلى الأقسام الأخرى من الشريعة، بحيث سنحكم

على كل منها بأنه «علم»، وبالتالي تكون الشريعة هي أيضاً «علماً»، و»العلوم الشرعية» تحتاج «طلب علم» لفهمها.

ولكن هل هذا بالضرورة أمر جيد؟!

أليسَ هذا من شأنه أن يجعل فَهمَ الشريعة منحصراً بالعلماء وطلاب العلم الشرعي، وبالتالي سيصبح عندنا طبقة «رجال دين» تحتكر كل ما يتعلق بالمعرفة الدينية؟!

سأفترض نفسي لو لم يتيسر لي لقاء هذا الشيخ هل كنت سأصل إلى ما وصلت إليه؟!

أليس يعيب الشريعة ألا يكون فهمها في متناول أيِّ أحد بحيث لا يضطر أن يسأل طبقة معينة من الناس هم «العلماء» كلما أشكل عليه شيء؟!



(١٧)
العلم الشرعي

كنت متحرجاً من سؤالي هذه المرة؛ فأنا سأسل عالماً في الدين عن أهمية وجودِ علماءَ للدين!

ولكني ما أن رأيت ابتسامته المعتادة بادرته بالسؤال:

ـ لماذا لا يكون فهم الدين في متناول أيِّ أحد يا سيدي؟

لماذا فَهْم يحتاج إلى كثير من المقدمات التي تصعب على كثيرين؟

ـ سؤال جيد كعادة أسئلتك...

لو نظرنا في نصوصِ الدّينِ الإسلاميِّ سنجدُ أنَّ هذه النصوصَ منقسمةٌ بِـحَـسَبِ كيفيةِ إدراكِنا لـها إلى قسمَينِ:

١ ـ نصوصٌ ندرِكُها بالضّرورةِ

٢ ـ نصوصٌ ندرِكُها بالبحث والتأمل والفكر والنّظرِ.

والنّصوصُ التي ندركها بالضرورةِ تُسمَّى «**المعلومَ من الدّينِ بالضرورةِ**»؛ لأنَّ العلم بها أصبحَ مُشتهِراً بين الناسَ شُهْرةً حصلَ معَها العلمُ بـمضمونِها منَ العالِمِ ومن الـجاهلِ، ومن المتعلمِ والأميِّ، ومن كلِّ الناس...

فهذا الذي يُسمَّى المعلومَ من الدّينِ بالضرورةِ.

أمّـا القسـمُ الثّانـي وهو مـا كانَ إدراكُنا لـه متوقِفـاً على التفكـر والنّظرِ، فيُسـمّى: **العلم النَّظري**.

فالحاصل إذنْ أنَّ النصوصَ الدّينيّةَ: نصوصٌ دينيّةٌ ضروريّةٌ، ونصوصٌ دينيّةٌ نظريّةٌ.

والنّصوصُ الدينيّةُ الضّروريّةُ يمكننا القطعِ بمعناها؛ لأنه معنى واضح جداً، لا مجال للخلاف فيه.

ـ هلا تفضلت بمثال سيدي للنصوص الضرورية

ـ مثلاً قوله تعالى: «قل هو الله أحد» لا تحتمل إلا معنى واحداً هو إثبات الوحدانية للإله، ولا يُمكن بحال أن يُفهم من هذه الآية إمكان تعدد الآلهة...

وكذا قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام»، قارنها مثلاً بقوله: «إنّما النّسيءُ زيادة في الكفر»، هل ترى فرقا بينهما في الوضوح بالنسبة لك؟

ـ الأولى واضحة الدلالة، وهي أن الصيام مطلوب منا، أما الثانية فلم أفكِّر سابقا بمعنى كلمة «النَّسيء»، فلا أعرف ما هي دلالتها.

ـ تماماً هذا هو الفرق بين النصوص الضرورية والنظرية، فما احتاج في فهمه إلى نظر «كالنّسيء» فهو نص نظري، وما كان شديد الوضوح كـ «كُتبَ عليكم الصيام» فهو الضروري.

والنّصوصُ الدّينيّةُ النّظريّةُ بعدَ أن يُعمِلَ الإنسانُ عقلَهُ فيها، ويستوعبَ كلَّ شروطِ النّظرِ المطلوبةِ سيَصِل في النّهايةِ إلى نتيجةٍ...

إمّا أنْ يُسَلِّم بَـها تسليماً لا يقبل معه التشكيك فيها، وفي هذه الحالةِ تُسمَّى هذه النتيجةُ نتيجةً قطعيّةً...

وإمّا أن يصلَ بعدَ نظرِهِ إلى نتيجةٍ يقولُ في نفسِهِ: يـمكنُ أن يكونَ الحقُّ بـخلافِ ما وصلتُ إليه. وهذا هو الظن.

وهذا سيقودُنا إلى أمرَينِ اثنَينِ:

الأمرُ الأولُ: أنَّ النّصوصَ الدّينيّةَ إذا نظرْنا إليها من حيثُ كَمُّها سنجدُ أنَّ أغلبَ النّصوصِ الدّينيّةِ هي نصوصٌ نظريّةٌ وليستْ ضروريّةً، فالضروريّاتُ من الدّينِ هي مِقدارٌ بسيطٌ جداً بالنّسبةِ إلى ما كان نظريّاً في الدّينِ، ما كانَ إدراكُه متوقفاً على نظرٍ؛ فالنّصوصُ النّظريّةُ هي الأغلبُ الأعمُّ والكَثْرةُ الكاثرةُ من النّصوصِ الدّينيّةِ.

الأمرُ الثّاني: معَ ملاحظةِ الأمرِ الأولِ لابدَّ أنْ لا ننسى أنَّ النَّظرَ هو إعمالُ الفِكرِ في النّصِّ لنصلَ منه إلى إدراكٍ يتّصفُ إمّا بيقينٍ وإمّا بظنٍّ...

فالنّظرُ أو العلمُ النّظريُّ متوقفٌ على نَظَرِ الإنسانِ، ولكن هل نظر البشر واحد؟

ـ أكيد لا؛ لأن نَظَرُ الإنسان متوقفٌ على طريقةِ تفكيرِهِ، وكل واحد يفكر بطريقة مختلفة.

ـ صحيح، فالثّابتُ أنَّ أنظارَ البشرِ مـختلفةٌ، وطرقُ الفكْرِ والنّظَرِ عندَ

البشرِ مُتَنوعةٌ ومُتكَثّرةٌ جداً، وبناءً على ذلكَ قطعاً سيقعُ الـخلافُ في العلمَ النّظريَّ بينَ البشرِ.

وقس على هـذا فهمنا للنصـوصِ النّظريّـةِ في الإسـلام، حيثُ سـيقعُ الخـلافُ بيـن المسـلمِينَ فـي فَهمِهـا وفـي إدراكِ المطلـوبِ منها.

ـ إذن يا سيدي على هذا سيكون فهم الإسلام في أغلبه مختلفاً فيه!

ـ لذلك يا بني كان لابدَّ حتى يُـحفَظَ الدّينُ أن يكونَ هناكَ مناهجُ مـحدَّدةٌ تَضبِطُ لنا هذا النّظرَ في هذه النّصوصِ، وإلّا سيكونُ كلُّ نَظَرٍ ديناً!

ولو كانَ كلُّ نَظَرٍ ديناً، والأنظار مختلفة حد التناقض فيما بينها، سيكون الدّينُ في نفسه متناقضاً! ولذلكَ كانت هناكَ مناهجُ مـحددةٌ تضبِطُ النَّظَرَ الذي قطعاً سيقعُ الـخلافُ فيه...

فالعلومُ الشّرعيّةُ هي المناهجُ المحدّدةُ التي تضبِط لنا كيفَ ننظرُ في هذا الدّينِ أو في النّصوصِ الدّينيّةِ...

والعلومُ الشّرعيّةُ هي التـي تُبيّنُ لنا متـى يكونُ هذا النَّظَرُ على قانونِ الإسلامِ ومتى يكون مـخالفاً له، ومتى يكون النّظَرِ ديناً.

ولذا يا بني العلومَ الشّرعيّةَ هي في حقيقتها حفظٌ للدّينِ...

ولولا هذه العلومُ وضوابطُها لكانَ كُلُّ نظَرٍ سيُنسبُ إلى الدّينِ ولأدّى هذا إلى تناقضٍ في الدين، كما ذكرت لك.

ولهذاكانَ طلبُ العلومِ الشّرعيّةِ في حقيقتِهِ طلباً لحفظِ الدّينِ...

وطالبُ العلمِ الشّرعيِّ هو أحدُ حُرّاسِ الدّينِ الذين يَـحفظُ اللهُ بـهم هذا الدّينَ.

فلا بدّ أن يُنظَرَ إلى العلومِ الشّرعيّةِ باعتبارها السّورَ الذي يـحمي هذا الدّينَ في نظريّاتِهِ...

وطلاب العلمِ هم حُرّاسُ هذا الدّينِ الذين لولاهم لتجرَّأَ كُلُّ صاحبِ نَظَرٍ أن يَنظُرَ ثم يَنسِبَ نَظَرَهُ بعدَ ذلك إلى هذا الدّينِ.

ـ سبحان الله!

كم تُظلم هذه العلوم يا سيدي عندما يستسهلها الناس ويتجرأون على الخوض فيها بدون طلب علم حقيقي.

ـ نعم مع الأسف.

ـ والآن يا بني عليَّ أن أخبرك أن لقاءنا القادم سيكون الأخير؛ حيث إني مضطر للسفر بعد يومين إن شاء الله، ولا أدري متى أرجع، فسؤالك القادم سنختم به مجالسنا البحثية هذه.

ـ بقدر ما يؤسفني يا سيدي أننا سنتوقف عن هذه المجالس، يسعدني حقا وصولنا إلى هذا المقدار من البحث والتمحيص في الإيمان، الذي لم أكن أظن أني سأصل إليه يوماً، ففي ستة أيام بلغنا من العمق في البحث مبلغاً أخرجني من التقليد إلى التحقيق...

فجزاكم الله عنّي خيراً يا سيدي، وسأفكر في سؤال يناسب ختمَ المجلس به.

(١٨)
مراتب الإيمان

لم أحتج إلى تفكير كبير لأقرر ماذا سيكون سؤالي الأخير؛ بل أظن أنني مستحضر له عقيب اليوم الأول الذي تباحثت فيه مع الشيخ، وكنت أنتظر بفارغ الصبر أن يأتي الوقت المناسب لهذا السؤال، وأظن أن هذا اليوم السادس الذي فيه اللقاء الأخير هو خير وقت لطرحه.

ـ هل البحث بالطريقة العقلية التي بحثنا بها كافٍ لأَصِل إلى منزلة عالية في القُرب من الله تعالى؟

ـ هذا سؤالٌ عظيم يا بُنيّ، حارت فيه العقول، وضاقت به السطور، وليسَ من أجابك عليه بالضرورة يكون ذا قرب من الله تعالى...

ولكني أعطيك خلاصة الطريق الطويل، لتسير فيه بحسب همتك:

أول مراتب السير في طريق الله تعالى هي مرتبة «**الدلالة**»...

أن تطلب الدليل عليه× وذلك بأن تنظر في العالم، كما فعلنا، فتستدل به عليه...

أنْ تلاحظ أنَّ كلَّ ما سواه ممكن حادثٌ مخلوق، ووجود المخلوق «دلالة» على وجود الخالق.

في هذه المرتبة يا بنيّ أنت محتاج لدلالة العقل لتسترشدَ بها؛ لأنك في هذا المقام تتقلب في المفاهيم والأدلة العقلية التي تتطلب منك الفكر والتأمل والنظر العقلي.

وهذه المرتبة هي التي يخاطب الله تعالى بها عموم المسلمين في القرآن الكريم، فيقول لِعَبيده مثلاً:

«وفي أنفسكم أفلا تُبصرون»...

فهذه الآية حَوَت دليلاً واستنكاراً معاً:

أما الدليل فهو أنت...

نعم كل إنسان دليلٌ بنفسه على خالقه، وتَذَكَّر يا بُنيّ أننا بدأنا بحثنا بكَ أنت تحديداً حينما سألتك: هل وجودك في هذا العالَم ضروري؟

ـ نعم، أتذكر هذا جيداً يا سيدي، وانطلقنا من هذا السؤال بعد ذلك إلى مفهوم «الإمكان».

ـ تماماً، وهذا جزء من وظيفتك في هذا العالَم وفي هذه الحياة يا بُنيّ...

«**الدلالة على الله تعالى**».

أنْ تسْتدلَّ بنفسك، وأن يستدل بك غيرك على مدلولٍ واحد، هو «واجب الوجود»...

وذلك بأن تلاحظ حقيقة وجودك، وأنه ممكن وليسَ ضرورياً

ثم تنتقل منه بعد ذلك إلى سائر صفاتك ملاحظاً إمكانها

لتصل في النهاية إلى نتيجة تؤمن بها:

«أنا ممكن أحتاج إلى مرجح»...

«أنا مخلوق أحتاج إلى خالق»...

وبعد أن تصل إلى هذه الحقيقة قِسْ عليها الكون حولك بما حوى، فكله ممكن يحتاج إلى مرجح... مخلوق يحتاج إلى خالق...

وقد وَرَدَ في الأثر: «من عَرَفَ نَفْسَه فقد عَرَفَ رَبَّهُ»...

فمن عرفَ من نفسه الإمكانَ والافتقارَ فقد عرف أنَّ وجوده لا يكون إلا بواجبٍ قادر...

ومن عرف نفسه بالحدوث، أدرك أنَّ العالَم مماثلٌ له في هذه الحقيقة، فصدّقَ أنه والعالَم محتاجان إلى المحدِث.

وقد أشار لهذا المعنى سيدنا محمد ـ ﷺ ـ إشارة غاية في اللطف والجمال، فقد كان ـ ﷺ ـ إذا رأى البَدْرَ قال له مخاطباً:

«رَبي ورَبُّكَ الله».

فإذا كنتَ أيها القمر المنير الذي يَسْلبُ جماله الألباب، ويُلهَمُ ناظرُكَ

التسبيح للخالق، ويرى فيك دلالة على الخالق لما يرى فيكَ أيها القمر من تغير وتبدل، ووجود بعد عدم، وعدم بعد وجود...

فأنا أيضاً دالٌ على ربي كدلالتك عليه، فانا وأنت حادثان ممكنان مخلوقان، لنا ربٌ محدِث واجبٌ خالق...

فيا أيها القمر: «رَبي ورَبُّكَ الله».

ـ كم هذا جميل يا سيدي!

ولكن لم يظهر بعدُ لي أين الاستنكار في قوله: «وفي أنفسكم أفلا تُبصِرون»؟

ـ في الحقيقة هما استنكاران:

الأول استنكارٌ لمن وُجِدَ وعاشَ حياته، وفعلَ وانْفَعَل بالعالم حوله في كل آن من آنات حياته ثمَّ لم يَخْطر في باله أن يتوقف قليلاً ليتفكر في حقيقة نفسه وافتقارها...

والثاني: أنَّ من تفكَّرَ في نفسه كيفَ لا يصل منها إلى أنها مخلوقة لا بد لها من خالق؟!

وهكذا يا بنيّ تكون مرحلة الدلالة، والأمر بها كثير جداً في كتاب الله تعالى، حيثُ يَطلُب من عبيده النظر في العالم لِيَصِلوا إلى إمكانه وافتقاره إلى خالق.

ـ فهل فوق مرتبة «الدلالة» مرتبة في الإيمان؟

ـ نعم، هناك مرتبة عزيزة، يَصِل إليها الآحاد من المُوَفَّقينَ، وهي مرتبة «**الإشارة**»...

ولا يَصِلُ إليها إلاّ من رَسَخَ في «الدلالة» رُسوخاً استقرَّت به في نفسه، ولم تعد تحتاج منه كثير جهدٍ ونظر...

كمن تعلَّم قيادة السيارة مثلاً، ففي أول أمره سيتطلب منه الأمر تركيزاً واهتماماً كبيرين، وسكون متمسكاً بمقْودِ السيّارة بكلتَي يديه، قابضاً عليه بشدَّة، لا يلتفت يَمنةً ولا يسرة، مشدود الأعصاب، لا يجتهد أبداً وإنما يلتزم تماماً بالتعليمات التي درسها عن قيادة السيارة...

فإذا واظبت على القيادة مدَّةً من الزَّمن ستجد أنَّ حالَهُ تبدَّلَ تماماَ، وأصبحت القيادة بالنسبة له أمراً يسيراً لا يتطلب منه ذلك الجهد الذّهني الكبير؛ بل سيقود سيارته وهو شارد الذهن أو مريض... وسيحاول أن يجرِّبَ أموراً في القيادة غير التي تعلَّمها، ولن يَهابَ أنْ يسلكَ طُرقاً ليست معروفةً له؛ لأنه سيرى أنَّ القيادةَ هي هي، سواءً كان الطريق معروفاً أم لا...

فهذه هي مرتبة الإشارة يا بنيّ لِمَن رسخ في نفسه إمكان العالَم وافتقاره إلى خالق، بحيث لم يَعُد يحتاج في كل مرة إلى نظرٍ واستدلالٍ بالعالَم...

في هذه المرتبة ستصبح نفسك والعالَم بكل ما حوى مشيراً إلى الله وليسَ فقط دليلاً...

فترى السماء فوقك مشيرة إلى عظمة الخالق وليس فقط إلى وجوده كما كنت في مرتبة «الدلالة».

وترى النَّاسَ من حولك مظاهرَ قدرةِ الله تعالى وليس فقط أنهم زيد وعمرو...

أن ترى يا بني في المطر رحمته

وفي اختلاف النبات الذي يخرج من أرض واحدة إرادته

وفي نظام العالَم العجيب عِلْمه

وفي المرضِ قهره...

فتُشاهد الكونَ كلَّهُ مشيراً إلى المُكَوِّن، وترى في كل شيء حولك مظهراً من مظاهر أسماء الله الحسنى وصفاته.

وقد أجملتُ لكَ في هذه المرتبة لأنها تُعاش ولا تُشرَح، ولا فائدة من تفصليها الآن لكَ يا بُنيّ إلا أن تتشوَّقَ لها، وتبذُل الوُسعَ والهمة في الوصول إليها مستعيناً بالله في ذلك.

وهذا سيكون آخر عهدي بك قبل السَّفَر، وإن تيَسَّرَ لنا اللقاء بعد ذلك سنبحث في مقام النبوة عموماً، ونبوة سيدنا محمد خصوصاً ﷺ.